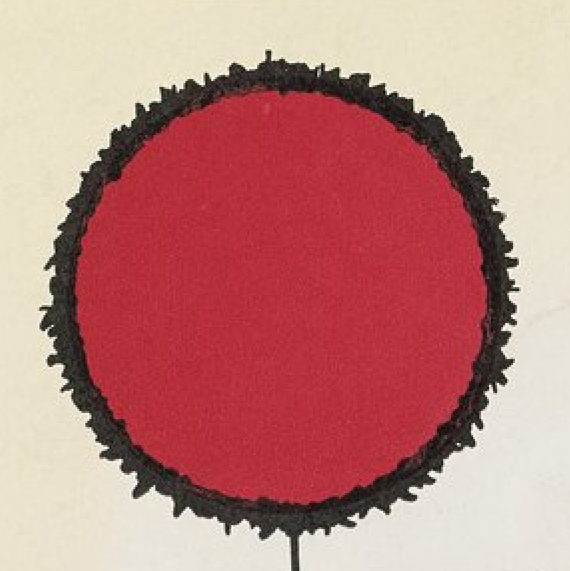
AL-SAMAWI

DIRASAT TARIKHIYAH

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

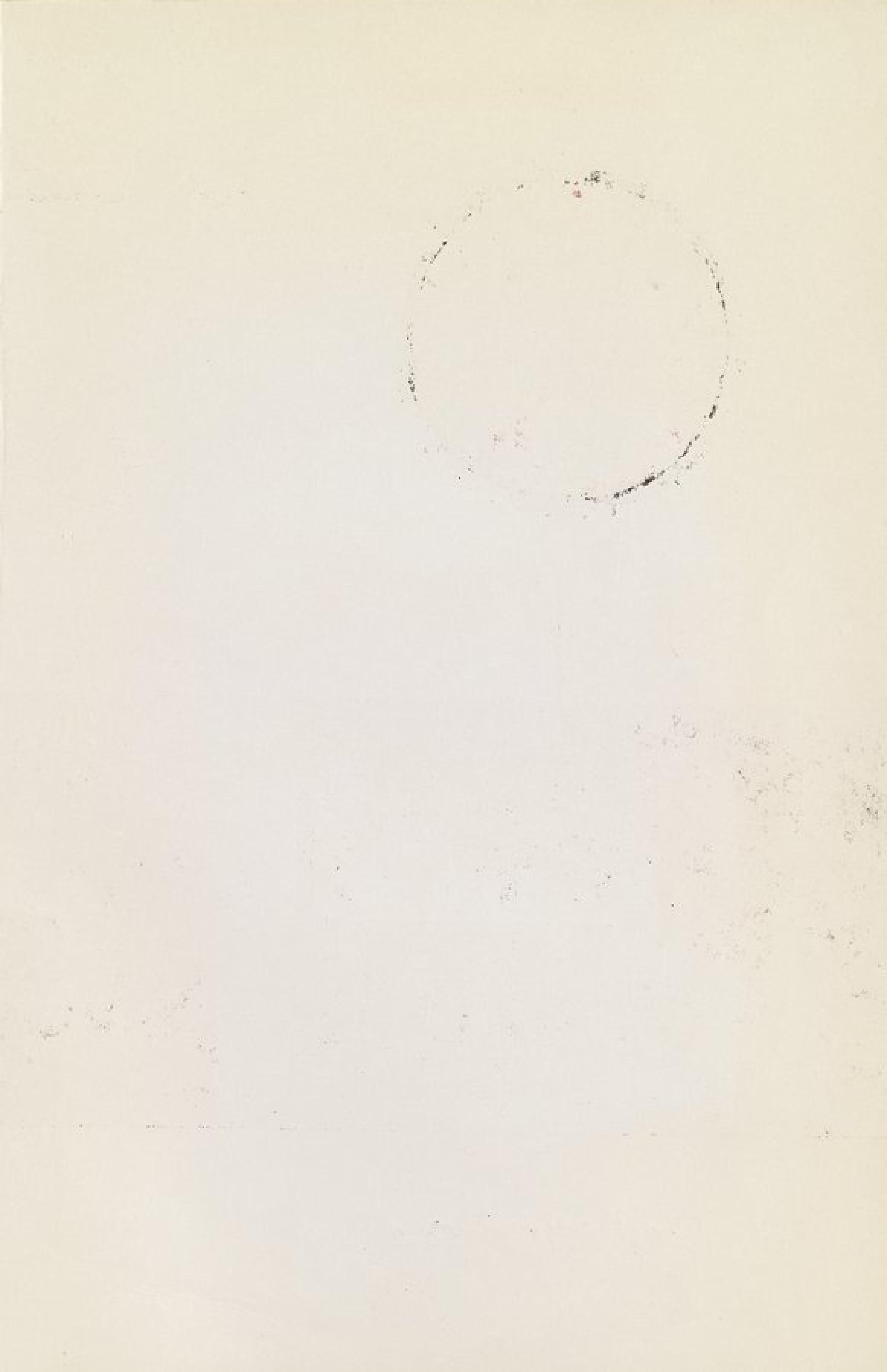
راسات تاريخية



ورة الحسين ع

عواملها - نتائجها

محمد نعمة السماوى



دراسات تاريخية

ثورة الامام

الحسين (ع)

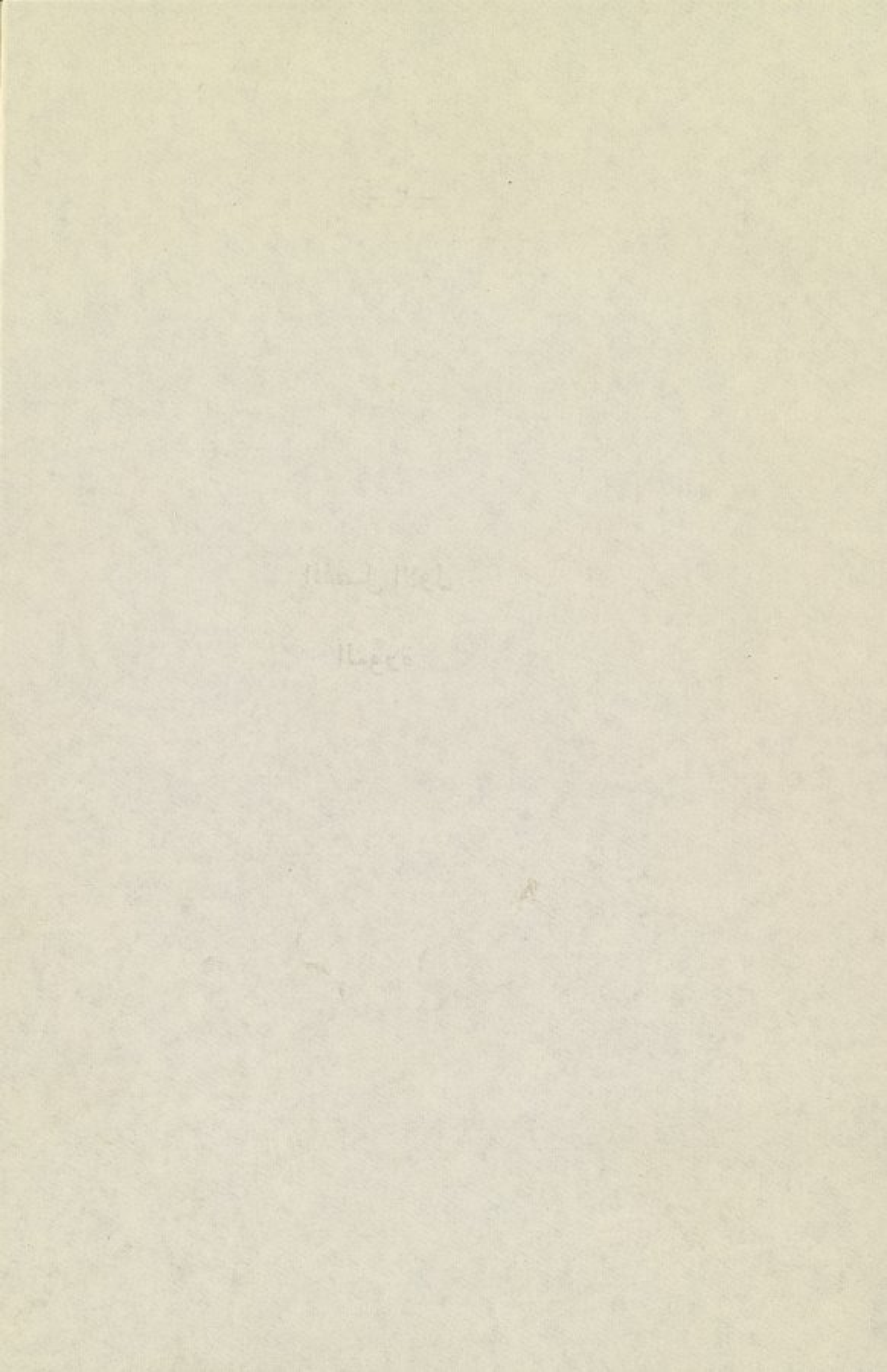
عواملها ـ نتائجها

محمد نعمة السماوي

١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م
مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧

الفصل الاول

الثورة



يقف المؤرخون والمفكرون من الحوادث التأريخية ـ تفسيراً وتقييماً ـ مواقف متعددة مختلفة . وتفسير الأحداث التأريخية ، يتطلب منهم ـ بالأضافة الى ذكر كيفية وقوعها ـ ان يلموا بالعوامل المختلفة ، النفسية منها أو الاجتماعية او الاقتصادية أو غيرها ، ومدى تأثيرها في اتخاذ تلك الاحداث خطوط سير معينة .

وموقفهم من الثورة كحدث تاريخي ـ لا يختلف عن مواقفهم من حوادث التاريخ المختلفة . ولعل أسباب الخلاف تعود الى قناعة المؤرخ بالمعلومات التأريخية المتوفرة لديه . ولما كانت المعلومات التأريخية آتية من مصادر متعددة ، خاضعة لمشارب واهواء ناقليها ومسجليها في أحايين كثيرة ، نرى ان دور المؤرخ هنا ، هو أخذ ما يراه صحيحاً منها لكي يبني على اساسه تحليلاته واراءه .

وقد لا يكون الخلاف حول صحة المعلومات التاريخية ، أبعد منه في تفسير هذه الاحداث ؛ فللمؤرخين ، كما لغيرهم ، وجهات نظر متعددة تجعلهم يقفون تلك المواقف المختلفة في التفسير والتقييم .

ونقاط الخلاف قد اتسعت وتشعبت حول العوامل والممهدات التي تواكب وقوع ثورة معينة ، وتساعد على انجازها ؛ فبينما يراها مؤرخ عوامل معينة يذكرها ـ اقتصادية او اجتماعية ـ يراها آخر عوامل نفسية مثلاً . وهذا أمر لا يستدعي حتى القليل من الاستغراب ، نظراً لاختلاف مستويات التفكير والقناعة بالمعلومات التاريخية لدى المؤرخين والمفكرين ..

وثمة خلاف آخر : ليس هو وقوف المفكرين والمؤرخين من الثورة تفسيراً وتقييما ، وانما هو موقفهم في تحديد معنى هذه الكلمة .

والواقع : ان للثورة مجالات مختلفة ، حددت معانيها وانواعها ؛ فهنالك

الثورة الصناعية ، وهنالك الثورة العسكرية والسياسية وهنالك أيضاًالثورة الفكرية ...

ومع اختلاف هذه الوجهات الثورية وتشعبها ، نرى انها لا تتعدى عن كونها خروجاً عن واقع معين ـ غير ملائم وفاسد ـ برأى القائمين بها ، ومحاولة لقلب هذا الواقع قلبا قد يكون جذريا وقد لا يكون .

ولكل ثورة عملها المعين ، فيما تحدثه من تغيير ، وتأتيه من نتائج ؛ فالثورة الصناعية تكون أثارها ـ أكثر ما تكون ـ في مجال الصناعة والتقدم الصناعي ، والثورة الفكرية في مجالات الفكر وطرائقه ، والسياسية أو العسكرية في مجال الحكم وادارة الشؤون العامة ، وتكوين انظمة حكم معينة بدل أخرى ؛ مع انها ـ أي السياسية والعسكرية ـ قد تكون امتداداً لتأثير فكري او اقتصادي ،مع مالها منجوانب عاطفية وتأثرات بأحداث معينة.

وفي بحثنا هذا ، لن نحاول ان نتناول جميع أنواع الثورات ـ الصناعية منها او الفكرية او السياسية او غيرها ـ وانما سنتناول الثورة ككل ، وخاصة الثورة التي تصل الى هدفها بطريقة عسكرية ، وموقف بعض المؤرخين من هذا النوع من الثورات .

وليس معنى هذا ، اننا نقوم بدراسة شاملة مفصلة لهذا النوع من الثورات ، لنجعله موضوع بحثنا ، وانما ، نحاول على ضوء دراسة بسيطة ، معرفة نوع معين من الثورات ، لكي نقف منه موقفاً معيناً تستلزمه ظروف دراستنا هذه ..

والثورة العسكرية ، وسيلة للوصول الى نتائج سريعة وحازمة ، وهي ليست الغاية الأخيرة ، أو الهدف النهائي ، وانما الهدف النهائي هو النتائج المرجوة من قيامها ، لا النتائج التي تعقبها فعلاً . كما يجب ان يؤخذ بنظر

الاعتبار الاسباب الأخرى التي تؤدي الى قيام هذه الثورة .

وقد سبق ان أشرت في بداية هذا الفصل ، الى ان موقف المؤرخين والمفكرين ، حيال الاحداث التأريخية لم يكن واحداً ، وانما أخذ اشكالا مختلفة ؛ وكان ذلك أيضاً بالنسبة للثورة بأعتبارها حدثاً تأريخيا معينا .

ونستنتج من ذلك ، أن موقفهم ، حتى من أنواع الثورات ، قد أتخذ تلك المواقف المختلفة نفسها ...

ونقاط الاختلاف تتركز — كما ألمحنا — حول تقييم الثورة ، وما تأتي به من نتائج ، وتصنيفها — استناداً الى ذلك — الى ثورة ناجحة او غير ناجحة (فاشلة) ، وحول أسلوب الثورة ، وكيف يجب ان تكون ، او تنجز ، وحول مشروعيتها وحتميتها .

وكثير من المؤرخين والمفكرين ينظرون الى الثورة ويقيمونها على ضوء النتائج العاجلة التي تأتي في اعقابها مباشرة ، فكلما كانت النتائج ذات نفع عاجل ، تتمخض عنه الثورة ، ولمصلحتها ، مباشرة ، عدت هذه الثورة ناجحة، وكلما كانت النتائج التي تعقبها تأتي بانتكاسة او ضرر للثورة ، عدت هذه الثورة فاشلة . والفشل والنجاح هنا ، قد يكونان أمرين نسبيين ؛ فالثورة التي قد تتمخض عن نجاح محقق ، ونتائج باهرة في أعقابها مباشرة ولمصلحتها، قد تفشل آخر الامر في السير على الطريق الذي اختطته ، وقد يكون ذلك الخط الذي قاد الثورة الى طريق النجاح ، هو نفسه الذي سيجرها فيما بعد الى الفشل والاخفاق ، فتكون حينذاك من الثورات الفاشلة ، وان طالت المدة بين تحقيق النجاح ووقوع الفشل .

وقد يكون فشل الثورة ناشئاً عن عوامل وظروف لا يد فيها للثورة ولا حيلة ؛ فهي ثورة غلبت على أمرها ، واحاطت بها مختلف الظروف والملابسات

المعاكسة لمصالحها .

والثورة التي لا تحقق أهدافها ، بعد وقوعها مباشرة ، قد تستطيع ذلك فيما بعد ، وتأتي بنجاح بعد فشلها المباشر . وقد لا يكون ذلك الفشل فشلا في نظر اصحابها والقائمين بها ..

وهنـا :

يكون لزاماً على المؤرخ ، ان لا يحكم على نجاح ثورة او فشلها بعد وقوعها مباشرة ورؤيته النتائج العاجلة التي تعقبها ـ سواء اكانت في مصلحتها او ضدها ـ وانما يجب عليه بالاضافة الى ذلك ان ينظر الى ما سيحدث بعد تلك النتائج العاجلة .

والمطلوب من المؤرخ كذلك ، ان يكون ـ على ضوء تحليله لاهداف الثورة ومسبباتها ، وكيفية وقوعها ، والأحداث التي تواكب وقوعها ـ فكرة عما كانت ستصيبه هذه الثورة من فشل اكيد او نجاح محقق .

وفي ظني ، ان ذلك ليس من الامور الصعبة ، بالنسبة للمؤرخ الواعي المتمرس بتحليل الاحداث وسيرها .

وثمة مطلب آخر ، يتوجب على المؤرخ ان يأخذه بعين الاعتبار ، وهو أن ينتظر مدة معينة ـ وخاصة اذا كان معاصرا لحدوث هذه الثورة ـ قبل أن يدلي برأي قاطع حولها ، حتى يرى ما سيأتي بعد النتائج العاجلة التي تأتي في اعقابها . ولعل ذلك الطلب يبدو في بعض الاحيان عبثا لا طائل تحته لانه قد لا يحقق الغاية المرجوة ، وهو الحكم الصحيح على الثورة والنظر اليها ، بالمنظار الصحيح ، لقصر عمر المؤرخ بالنسبة الى عمر الزمن ، فقد لا تكون تلك المدة الباقية من ايامه كافية لكي يدرك الوجه الصحيح ، على ان ذلك بلا شك أوفق للمؤرخ ، وأصلح له ، خاصة وان هنالك فارق كبير

بين حكم على حدث يصدر بعد وقوعه مباشرة ، وآخر يصدر بعد سنين ، حتى ولو كانت قليلة ..

وبالنسبة الى اسلوب الثورة ، نرى ان المؤرخين قد يصنفون الثورات على ضوء أساليبها ، ويعدونها — بمقاييس بهم خاصة — ضمن أنواع يقومون هم بتصنيفها ؛ فقد يأخذ مؤرخ على ثورة اسلوبها ، فيعده اسلوبا بعيدا عن الخط الثوري الذي رسمه بمفهومه الخاص ، بينما يرى آخر ، ان الخط الذي تنكبته هذه الثورة ، هو الخط الثوري المثالي .

ونظرة المؤرخين الى الثورات وتحديد خطها الثوري ، يعود بالدرجة الاولى الى آراء واجتهادات كونوها هم ، بأنفسهم ، مقتنعين ، كلا منهم بارائه واجتهاداته الخاصة .

والثورة التي يعتبرها مؤرخ ما ، ثورة مستكملة جوانبها الثورية ، قد يراها آخر بعيدة عن مفهوم الثورة المتكون في ذهنه ، فمؤرخ او مفكر ، يمتزج مفهوم (العنف) في ذهنه بمفهوم (الثورة) ، حتى يصبحا كلا واحدا يعتبر الثورة خارجة عن كونها ثورة حقيقية اذا لم تمتزج بالعنف ، ومؤرخ يرى ان الثورة هي (انقلاب) ليس من ملتزماته العنف ، وهي تتم ، أول ما تتم كثورة اولى في الشعور والنفس والتفكير ، وبعد ذلك في مختلف مظاهر الحياة الاخرى ..

والأول له حججه واسانيده التي يستند اليها ..

والثاني له حججه واسانيده أيضا ...

وقد يكون وان هنالك فعلا — مؤرخ أو أكثر له وجهة نظر أخرى حول الثورة ، قد تكون مغايرة لوجهتي النظر آنفتي الذكر .

وهنا لنا وقفة قصيرة في تحديد معنى كلمتي « الثورة » و « الانقلاب »

وكذلك كلمة « الاصلاح » أيضا .

فالاصطلاح الشائع في تحديد معنى الانقلاب هو انه الثورة العسكرية والثورة بانها التغيير الاجتماعي .

ولعل اساس النظرة الشيوعية ، التي اوجدت هذا المفهوم ، يعود بالاصل الى ان الشيوعيين قد احدثوا الانقلاب الاجتماعي عن طريق الثورة .

فمما لا يخفى ان الاوضاع التي كانت سائدة قبل بداية الثورةالشيوعية سنة ١٩٠٥ تختلف عن تلك التي سادت بعد ذلك التاريخ من حيث الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وجميع المظاهر السلوكية .. ونلمس ذلك الفرق بعد سنة ١٩١٧ حيث اكتملت جميع مراحل الثورة الروسية . ومن هنا كان على الروس الذين قاموا بالثوره ، ان يقوموا بتغييراتهم الاجتماعية كخطوة تالية، بعد الثورة . وكان من هنـــا أيضا ، التلازم ـ بنظرهم ـ بين الثورة والتغيير الاجتماعي ، الذي شـاع ، حتى أصبح مفهوما معتنقا من قبل مجموعات كبيرة من الناس .

وللرد على هذا المفهوم ، نستطيع ان نورد حالات معينة نثبت بواسطتها، أنه قد لا تكون هنالك علاقة بين الثورة والتغيير الاجتماعي . واوضح هذه الحالات ، هي الحالة التي حدثت في الدعوة الاسلامية في بداية منطلقها ، حيث عملت هذه الدعوة على احداث الانقلاب الاجتماعي بلا ثورة ، وانمـا بتسلم زمام السلطة عن طريق أهل يثرب ، الذين اعتنق معظمهم الاســلام .

والانقلاب العسكري لا يعني بالضرورة ، انقلاب الاجتماعي نفسه ، فشتان ما بينهما ، لان الانقلاب العسكري ، يعني ازاحة الفئة الحاكمـة والابقاء على الاوضاع الاجتماعية ، بينما الانقلاب الاجتماعي يعني قلب كل الاوضاع ، بما في ذلك الفئة الحاكمة ... ومن هنا اصبحت عبارة الانقلاب

الاجتماعي ، تعطي مدلولا اوسع واشمل من ذلك الذي تعطيه عبارة الانقلاب العسكري الذي يعني (ثورة) جماعة على جماعة أخرى .

وعلى ذلك ، فاننا نجد ان الانقلاب لا يعني الثورة العسكرية ، والثورة لا تعني التغيير الاجتماعي ، كما هو شائع .

اما « الاصلاح » فهو يعني الايماز بصلاح الظروف الموجودة ، وان هذه الظروف لا تحتاج الى الى ترميم بسيط ، يقوم به هذا « الاصلاح » ، لتعود هذه الظروف ملائمة لافكار القائمين به .

وتنشأ فكرة القيام بالدعوات الانقلابية ، بعد التحسس بضرورة قلب الاوضاع الموجودة — والتي هي لا تلائم رغبات الناس من عدة وجوه — قلبا جذريا ، واحلال اوضاع مغايرة لها ، يسير على أساسها المجتمع القائم .

وتبدأ الدعوة الانقلابية أول ما تبدأ ، بين اوساط الطبقة « الواعية » ، التي تبدأ عملها ، عندما تلمس شعورا معينا من المجتمع ، يتأثر وينفعل به سلبا أو ايجابا ، كذلك الذي يكون عند وجود غزو اجنبي او نكبة كبرى أو عند خروج الحكام خروجا سافرا عن أوضاع الناس التي اعتادوا ان يعيشوها والافكار التي اعتادوا ان يفكروا بها ....

فيبدأ هؤلاء بالفات نظر الناس الى جوانب النقص والضعف الموجودة ، وتنبيههم الى ضرورة وجود اوضاع تختلف عن الاولى ، يسير عليها الناس ويعيشون على أساسها كما ينبغي لهم .

ولان بداية المنطلقات ، التي تبدأها الدعوات الانقلابية مختلفة — وذلك يعود الى اختلاف نوعيتها ، ونوعية الاشخاص القائمين عليها — فاننا نلمس فروقا كبيرة في خطوط سيرها ومراحل عملها ، وفي الخطوات التي تتخذها لانجاز خطتها الاخيرة وهدفها النهائي ...

ومع ان كلمة « الانقلاب » تعطي مدلولا يختلف عن الذي تعطيه كلمة

« الاصلاح » ، فاننا يمكن ان نلمس ترابطاً بينهما ؛ فان الانقلاب لا يمكن ان يحدث رأساً في كيان المجتمع القائم ، ما لم تواكبه خطوات « اصلاحية » تهيء له المنطلقات الاساسية .

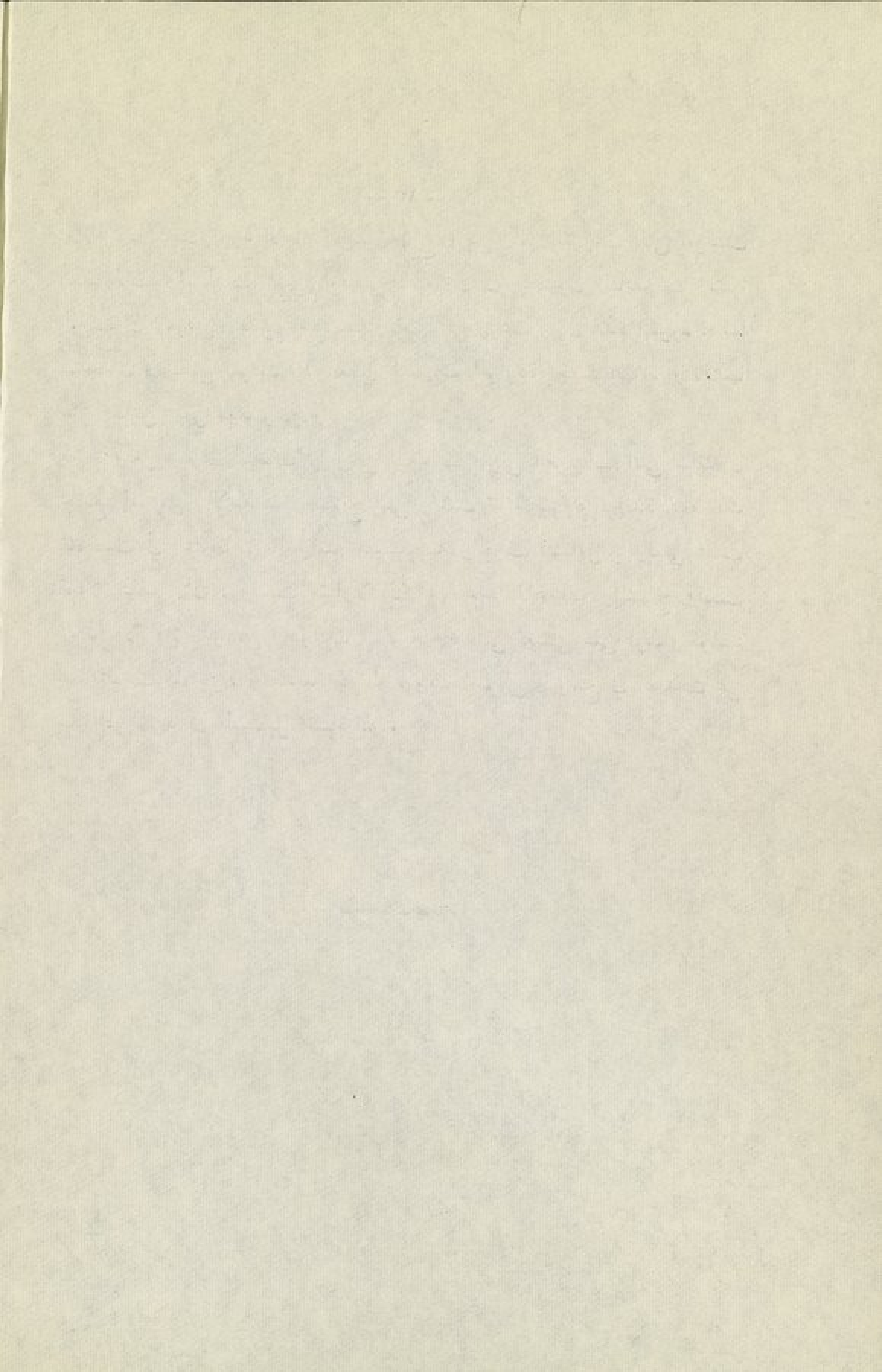
وبالنسبة للاسلام ، فان اولئك الذين حاولوا أن يقوموا بأحداث انقلاباتهم او ثوراتهم الاجتماعية عبر سلسلة طويلة من عصور (الحكم الاسلامي) — حينما رأوا فساد الاوضاع القائمة — لم يحاولوا ان يسيروا بطريق انقلابي مجرد ، وانما واكب طريقهم الانقلابي طريق اصلاحي آخر ، عمل على تدعيمه وتقويته ...

وسنلمس مصداق ذلك ، عندما نبدأ بالحديث عن ثورة الامام الحسين عليه السلام ، لنرى ، هل كان العمل الانقلابي الذي حاول ان يمارسه يتعارض مع الخط الاصلاحي الذي مارسه أيضاً ، او ان هنالك ترابطاً وثيقا بين « الانقلاب » و « الاصلاح » ؟

ولست — على اي حال — في مجال المقارنة بين اراء مختلف المفكرين والمؤرخين حول الثورة ، فذلك موضوع يحتاج الى دراسة مستفيضة ، قد لا تتوفر لي في الوقت الحاضر ؛ وانما أحاول ان اتناول هنا ثورة الامام الحسين (ع) واحدد مكانها من أنواع الثورات . وهل كانت ثورة اصلاحية، استهدفت اصلاح جانب فاسد واحد من جوانب الحياة القائمة أنذاك ، كأصلاح حاكم فاسد واحلال حاكم صالح محله ، أو اصلاح حالة اقتصادية او اجتماعية معينة .. أم انها كانت « ثورة انقلابية » شاملة ، استهدفت اقامة المجتمع القائم انذاك على قواعد واسس اسلامية متينة التركيب ، عمادها الشريعة الاسلامية الشاملة لوجوه الحياة المختلفة ؟

ولما كانت ثورة الامام الحسين (ع) من اكثر الثورات التي تعرضت لتساؤلات وانتقادات شتى ، فانني سأحاول في الفصول القادمة ـ انشاء الله ـ ان اتعرض لبعض هذه التساؤلات التي وردت حول هذه الثورة ، كما سأحاول في نفس الوقت ردء بعض الشبهات الواردة بخصوصها ، واناقشها على اساس علمي موضوعي .

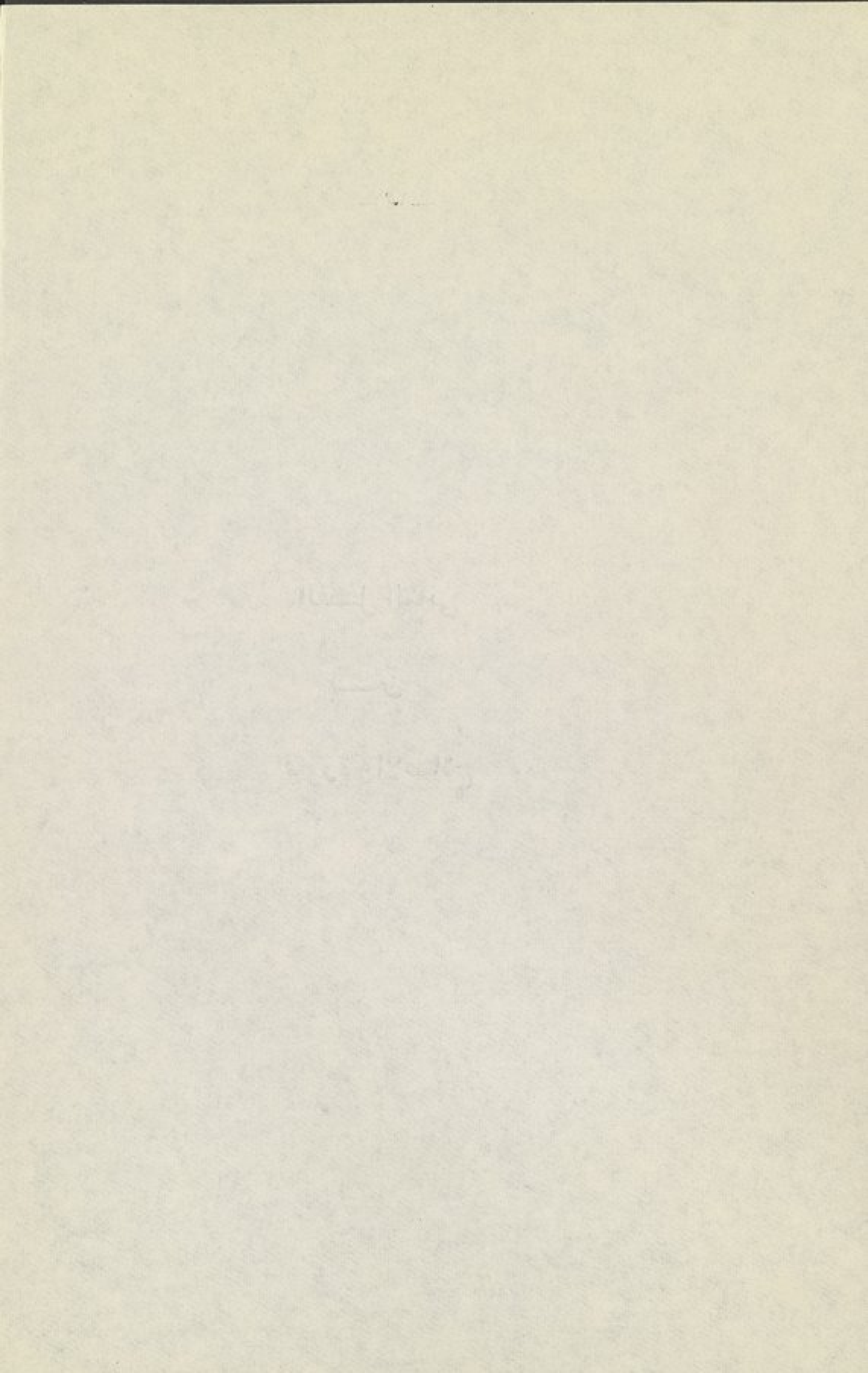
ولعل عنوان الكتاب ، يوحي اليك ـ قارئي العزيز ـ التي سأتناول جميع العوامل والاهداف والنتائج التي واكبت تلك الثورة الرائدة ، أو تلك تمخضت في اعقابها ، بالدراسة المستفيضة والبحث الشامل ؛ ولعلي لست فاعلاً ذلك الآن ، ولست متناولا الا أهم هذه الاهداف والنتائج ولست آخذاً الا أقل قدر من الحوادث التأريخية ، التي تعينني على ارساء قواعد هذا البحث الموجز ، وتحديد اطار له ، ريثما يتم لي التوسع في الحديث عن هذا الموضوع في المستقبل انشاء الله .



الفصل الثاني

بـــين

الثورة والاصلاح



هنالك نظرتان مختلفتان عن الثورة ومبررات قيامها :

الاولى ترى : ان الناس لا حق لهم ان يثوروا على الدولة وان كانت سقيمة ، ليحدثوا فيها ما يرنون له من تغييرات ، لان الدولة ــ حسب تبريرهم ــ هي أرقى من كل فرد من أفرادها ، بل أرقى منهم مجتمعين . والشخص الذي يريد القيام بثورة ، انما هو شخص « ناقص » اجتماعياً وأقل من غيره . وكان على رأس القائلين بهذا الرأي هو هيكل ، الالماني « ١٧٧٠ ــ ١٨٣٠ » . فقد قال عن الثورة : « ان الثورة ظاهرة اجتماعية شاذة وناشزة عن السير العام للمجتمع الانساني ، ومثل حدوثها ــ على حد زعمه ــ كمثل حدوث مولود بثلاثة ارجل او بستة اصابع في كفه او احدى قدميه »[1] .

والثانية ترى : ان الدولة على الشعب حقوق والتزامات ، اذا أخلت بها ، يكون من حق الشعب ان يثور ضدها ويحطم جهازها الحكومي ويستبدل به جهازا آخرا . ومن القائلين بذلك توماس هوبز (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) في انكلترا ، وجان جاك روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) في فرنسا ، وجون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) في انكلترا أيضا ، حيث اعتبر الثورة ظاهرة اجتماعية طبيعية ومنسجمة مع السير العام للمجتمع الانساني ، وانها تحدث عادة اذا توافرت شروط خاصة لحدوثها . أي ان الثورة عمل مشروع يحق للشعب (بل يجب عليه) أحيانا أن يقوم به على الحكومة التي لا تمثله ، والتي تنكبت عن السبيل السوي في الحكم .

وقد ذهب ماركس (١٨١٧ ــ ١٨٨٣) الى أبعد من ذلك ، حيث اعتبر ان الدولة ــ وعلى رأسها الحكومة ــ غير المستندة على ارادة الناس ، وغير

---

(١) الثورة . الدكتور نوري جعفر ص ١٠ .

المنبثقة عنهم ، وغير الساعية لخدمة مصالحهم ، مؤسسة ظالمة ، اوجدتها الفئة ذات المصالح المركزة من الناحية الاقتصادية ، لغرض المحافظة على مصالحها المبنية على أساس سلب الفئات المحرومة حقوقها المشروعة • وعلى هذا الاساس ، يصبح من حق الأفراد ، ومن واجبهم كذلك ، ان يعلنوها حرباً شعواء لا هوادة فيها على الدولة ، للقضاء على الفئة الحاكمة الفاسدة تمهيدا لتسلم زمام الحكم ، وانشاء حكومة يديرها مندوبون عن الجماهير والطبقات المحرومة ، لغرض الانتقال مع الزمن وفي المدى البعيد ، الى ايجاد مجتمع غير طبقي ، ينتفي فيه وجود الدولة والحكومة بشكلهما الاعتدائي المعروف لانتفاء الحاجة اليهما ••• (٢)

***

ومهما يكن من أمر النظرات السابقة وصحتها أو عدمه ، فان هنالك نظرة ثالثة فريدة ، لم توجد الامن خلال المعطيات التي قدمها الاسلام • وهي: ان مشروعية الثورة وعدم مشروعيتها ، يعتمد في الدرجة الاولى على ما يمكن أن تثبته من السير على خط معين لم تقدمه الحكومة ولا الشعب كذلك ، وانما هو آت من مصدر ثالث ، على الحكومة ان تلتزم بالسير عليه كما يجب على الشعب ـ بنفس الوقت ـ ان يلتزم به ، وهو الخط الاسلامي •

ولما كان خط الاسلام ، هو الخط الذي يجب ان يتنكب ويسار عليه ، من قبل جميع أفراد الدولة ، الحاكم والمحكوم ، فان أي اخلال من جانب الحاكمين او المحكومين ، يجب ان يؤدي بالجانب الآخر الى ان ينبهه الى ضرورة تعديل سلوكه طبقاً للنظام الاسلامي ••• فاذا أخل الحكام مثلاً بأحكام الاسلام ، وتهاونوا في تطبيق تشريعاته تطبيقاً حازما وحكيما ، اصبح

(٢) المصدر السابق ص ١٠ و ١٤ ـ ١٥ •

من واجب المحكومين ان ينبهوهم الى ضرورة السير على الطريق المستقيم ..
واذا أخل المحكومون أو بعضهم بواجباتهم التي حددها الاسلام ، للسير على خطته المدروسة لتنظيم الحياة البشرية ، اصبح من واجب الحاكمين ان ينبهوهم او يلزموهم بالسير على الطريق الصحيحة .

وهنا اصبح على كل من الحاكمين والمحكومين ان يسيروا على خطة مدروسة هادفة ، تستهدف التعاون والنصيحة ، لتسيير أمور الدولة ، واعتبار الحكومة سلطة منتخبة من قبل الامة ما دامت تمثل الشريعة الالهية ، وغير معترف بها ، ومرفوضة من قبلها اذا لم تمثل تلك الشريعة ؛ فالعقد الموجود بين الامة والحكومة أساسه الاسلام ، وان أي اخلال بأي مبدأ من مبادئه او تحريف أي تشريع من تشريعاته ، معناه فسخ العقد بصورة تلقائية لا مجال فيها لأي تفكير ...

فالحاكم هنا هو الاسلام ، والذين يحكمون يجب ان يحكموا به ، والمحكومون محكومون من قبله ..

واذا كان في مجال عدم الالتزام من جانب أي من الطرفين المتعاقدين ، الحكومة او الأمة ، بحدود تلك العقود الموجودة ، أن اصر فريق منهما على خطة سير او رأي لا يتلائم مع خطة الاسلام ، اصبح من حق الطرف الآخر ان يصلحه ويقومه ، بل ويطيح به اذا ما اقتضى الأمر ذلك ، بثورة بيضاء او حمراء .

وهكذا كان في زمن الثلاثة الذين تولوا الخلافة بعد النبي (ص) ؛ فانهم أعلنوا على الشعب المسلم بأنهم ملتزمون بأحكام الاسلام ، وبأن عليه — أي الشعب — ان يطيح بهم متى ما لمس منهم أي بادرة تدل على الخروج عن مباديء الاسلام او لتهاون في تطبيق احكامه وتشريعاته ؛ وسواء اصح ذلك

القول ، أم لم يصح ، فان ذلك يثبت لنا ان اساس قيام الحكومة هو على اساس مسؤوليتها لتطبيق الاحكام الاسلامية ؛ فيعتبر عدم تطبيقها تلك الاحكام ، بلوغ مرحلة يجب عندها فسخ العقد معها من قبل الشعب واعتباره ملغياً .

* * *

ولما كان أساس وجود الحكومة : هو على اساس تمسكها بالخط الاسلامي ، ومعاهدة الامة على السير على ذلك الخط ، اصبح عليها أن تفعل ما يلي اذا كانت تريد الحفاظ على حكمها بأي شكل من الاشكال :

١ — اما ان تلتزم فعلاً بالاسلام ، وتطبقه كمنهاج حركي قادر على توجيه وقيادة الامة توجيهاً حكيما .

٢ — او تعرض صورة للاسلام ولنفسها ترسمها هي فتبدو وكأنها ملتزمة به فعلاً .

٣ — او تحاول اضعاف الشعور الديني الاسلامي في نفوس الأمة حتى لا يرتفع صوت ضد الحكومة فيما اذا أرادت ان تتنكب طريقاً غير طريق الاسلام .

ومن هنا كان المفترق الذي يمكن ان ننطلق من شعبه لتحديد أسباب الثورات الاسلامية التي حدثت على مر الزمن . ومن هنا كان علينا أيضا ، ان نواجه الزاوية التي انطلق منها الحكام الذين أرادوا إمساك زمام الامور بعد وفاة الرسول (ص) ؛ لنجد ان النقاط الثلاثة الآنفة الذكر ، كان لكل منها شأنه عند جماعة معينة منهم ... فالذين أمسكوا الحكم بعد وفاة الرسول (ص) ، منهم من التزم بالاسلام قولاً وفعلا وطبقة ، كالامام علي (عليه السلام) مثلا ، ومنهم من لم يسر على خط الاسلام ، وخرج عنه خروجاً

سافراً ، وحاول ان يجعل الناس لا يلتزمون بدورهم به عن طريق اضعاف الوازع الديني لديهم ...

كمعاوية بن أبي سفيان ، فانه على الرغم من اتخاذه مبررات عديدة لتثبيت حكمه وادامته ، فانه عمل في نفس الوقت على اضعاف الجانب الديني في نفوس ابناء الأمة ، وعرض الاسلام بصورة مشوهة ، وذلك بشراء ذمة بعض (الصحابة) ، ليروا احاديث وروايات كاذبة عن النبي (ص) ، وتقديم القصاصين في كل مجلس ، والذين كانوا — بما يسبكونه من قصص ذات طلاوة معينة — يحاولون ان يحرفوا جميع الاخبار التأريخية ويرووا قصصاً عن (امجاد) اجداد الخلفاء الامويين وكراماتهم ، وما حاوله الرسول (ص) من التقرب اليهم وتكريمهم ! وغير ذلك من المفتريات . وكذلك بشراء ذمم بعض القبائل والمرتزقة ، او بوسائل التعذيب والتنكيل .

واحسب ان امة ترضى — عن كره او طواعية — بولاية عهد يزيد لها ، لابد وان تكون اساليب معاوية المختلفة لحرفها قد نجحت فعلا .

وهنا كان علينا ان نتعمق في النظر الى الاوضاع لنر :

هل كانت اسباب الثورة مهيئة وكافية للقيام بها من قبل الفئة الواعية من الامة ؟

وسنجيب على هذا السؤال ، بعد ان نوضح وضع الفئة الحاكمة ووضع الامة المحكومة ، ونرى نوعية العلاقات القائمة والظروف التي كانت تمر بها الامة . لنتساءل بالتالي : —

هل كانت ثورة الامام الحسين (ع) ثورة حتمية فرضتها الظروف التي مرت بها الامة في عهده ؟ وهل استكملت الثورة مبررات قيامها قبل نهضة الامام (ع) ؟ ولماذا لم يقم الحسين (ع) بثورته في زمن اخيه الحسن (ع) ،

خاصة وان الامكانات ربما كانت أكبر كما يبدو والموالين اكثر ؟

* * *

ولا بد لنا من الاشارة الى ناحية أخرى ، نستعرض من خلالها نوعية العلاقات الاجتماعية القائمة . وقد بينت ان الامر بالنسبة لوجود الدولة الاسلامية ، هو على اساس وجود التعاقد الطبيعي بين السلطة الحاكمة والامة بأن يلتزم كل منهما بالاسلام ، ويكون عدم معنى التزام احدهما به ، فسخ العقد بصورة طبيعية أيضا . فاذا تخلت الحكومة عن روح الاسلام وتشريعاته كان على الامة ان ترجعها الى حضيرته ، او تبعدها عن مركز القيادة والسلطة، واذا تخلت الامة عنه ، كان على الحكومة ان تفرض عليها الالتزام بواجباتها الدينية . وبدهي : ان الامة لا يمكن ان تتخلى هكذا ، دفعة واحدة عن الاسلام ، ولا تعد تؤمن به ، بعد ذلك التلاصق الذي كان بينها وبينه ، بل انه ربما يكون هنالك انحراف خطير عن خطه ، من قبل مجموعة كبيرة .

وقد كان الامر كذلك . فالسلطة الحاكمة قد تخلت عن الاسلام . وهذا ما سنحاول ان نبينه في فصل قادم ، كما سنحاول ان نبين الاوضاع التي آلت اليها أمور السلطة الحاكمة في عهد معاوية ويزيد . والامة قد انحرفت كذلك انحرافاً بينا عن روح الاسلام وتعاليمه ، مع ان ذلك الانحراف لم يكن أصلا منها ، فقد كان متقصداً من قبل الفئة الحاكمة التي أرادت ان تسوق الامة بصورة لا ارادية . لتجعلها تلتزم بتعاليم وقضايا وأمور معينة ، هي الى الجاهلية أقرب وهي أبعد ما تكون في نفس الوقت عن روح الاسلام وتعاليمه. وسنحاول أيضا ، ان نبين بصورة أكثر تفصيلية مدى ذلك الانحراف ومقداره.

وهنا : ماذا يكون شأن الطبقة الواعية ، المتمرسة بالاسلام وشؤونه ؟ هل تثور على السلطة الحاكمه ، وتحاول استبدالها ، لتفرض الاسلام وتشريعاته

على الامة بالقوة والاكراه ؟ ام هل تستبدل الامة بامة غيرها ، وهذا غير ممكن بديهـــة ؟

فكيف تعمل هذه الفئة على قلب الاوضاع التي آلت اليها أمور الامة والحكومة على السواء ؟ وما هي الطريقة التي يمكن ان تتنكبها لكي تعيد الى الاسلام النفوس التي ابتعدت عنه ؟ هذه الاسئلة ، قد تبدو مستعصية ، بالنسبة للمصلح الاجتماعي الذي يريد ان يتناول بالاصلاح جانباً فاسداً واحدا أو ربما جانبين او ثلاثة ، فيجد جميع الجوانب فاسدة ، لا يمكن اصلاحها ، ولا يمكن اصلاح الامة الا بتبديلها . واذاً فكيف تتم عمليـــة التبديل او التغيير هذه ؟

ولا يمكن ان يجيب على هذا السؤال الا شخص واحد ؛ شخص يؤمن بأن المظاهر الخارجية للامة لا يمكن ان تبدل الا بتبديل مظاهرها الداخلية ؛ لا يتم الا بتبديل نفوس الناس وجعلها غير التي كانت ؛ شخص يحاول ان يجعل من الآية التالية « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٣)، منطلقا رئيسيا في عملية قلب الاوضاع . وهنا .. يدرك هــذا الشخص « الانقلابي » بأنه لابد من احداث هزة في كيان الامة ، هزه تجعلها تدرك مدى فساد اوضاعها ومدى انحرافها عن اسلامها . فكيف يمكن ان تكون هذه الهزة ؟ هل تكون بضم جميع العناصر الواعية المدركة الى بعضها لتحاول التخلص من الحكم الفاسد ؟ وهبها تخلصت منه ، فكيف تتخلص من الانحراف الذي آلت اليه الامة ؟

ويبرز هنا الجواب الصحيح ، الذي يتمثل على شكل العمل الذي قام

---

(٣) آل عمران ١١٠ .

به الحسين (ع) ؛ فهذا الرجل الذي لا يدانيه أحد في شرف محتدة وعمق ايمانه برسالة الاسلام ، ليس بالغمر ، ولا بالمجهول ، وحقه في قيادة الامة ليس بالمنسي . وجميع الامة تعرف الظروف والملابسات التي جعلت الخلافة تخرج من يده ، بعد ما خرجت من يد أخيه الحسن (ع) من قبل .

واذا ما قام هذا الرجل بعمل معين ، فان عيون الامة ستبقى شاخصة اليه ، مهما تكن بساطة ذلك العمل . وهو ... لعله يدرك أكثر من غيره ، مدى أهميته عند الامة ، ومدى امكاناته على احداث الهزة المطلوبة في نفوس ابنائها ... واذاً فقيامه المشروع على السلطة الفاسدة ، وكل الناس تعرف مشروعيته ، يجب ان يكون له التأثير الأكبر على أحداث الامر المطلوب ...

لقد كان يمكن ان يصل الحسين (ع) الى منصب مرموق في حكومة يزيد .. ويستطيع ان يحصل على ما يشاء من الاموال وملايين الدنانير ... وله من شرف نسبه ودينه ما يجعله في قمة اشرف رجال المسلمين .

فماذا تراه فاعلاً اذاً اذا ضحى بكل ذلك ، في سبيل الامة وفي سبيل الاسلام ؟ الا يجعل الأمة تفكر بالاسلام العظيم ، الذي يجعل من أناس مثل الحسين ــ لهم ما لهم من شرف وقدر ــ يضحون بأنفسهم وبكل غال ورخيص في سبيله ؟ الا يمهد ذلك ، الطريق لان تزيح الامة الغشاوة التي وضعت على عيونها ، فتعرف معنى التضحية من أجل الاسلام ؟ الا يمكن ان تولد تلك التضحية جوانب ايجابية وجوانب سلبية في نفوس ابناء الامة ، تجعلهم يتمسكون بالاسلام من الناحية الايجابية ، ويكرهون كل ما يتنافى مع الاسلام من الناحية السلبية ؟

ثم ، الا يكون للذين يوالون الحسين (ع) ويحبونه حباً شديداً ،

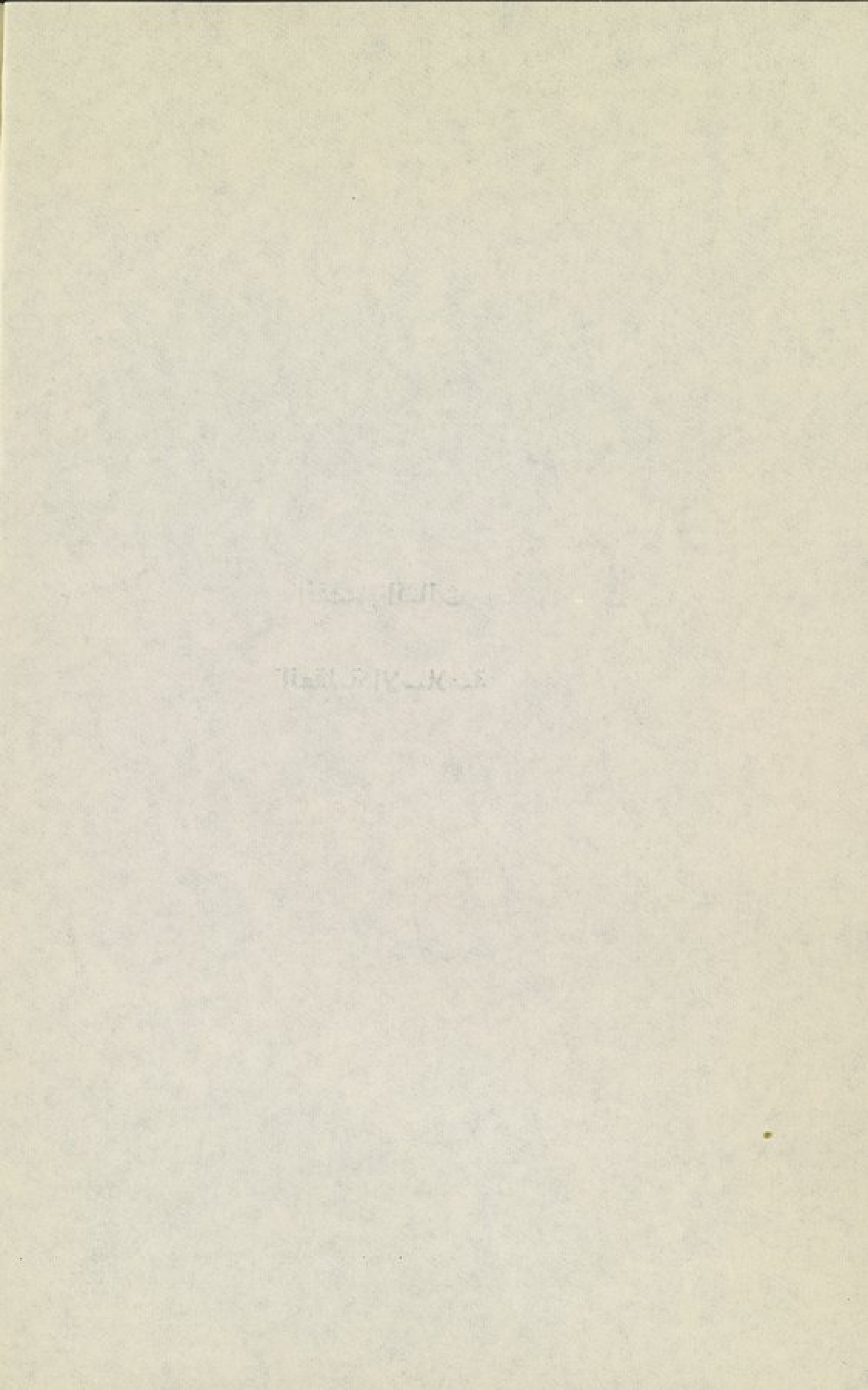
هو وجميع أفراد عائلته ، دوراً فعالاً في تذكير الامة بعملية الحسين الفدائية التي لم يرد من ورائها ، الا نصرة الاسلام ؟

ولعل الامام الحسين (ع) كان من أعرف الناس بموقفه ودقته ؛ فانه قد عرض الرجوع الى الاسلام على الفئة الحاكمة .. وذكر الناس في كل وقت بالصفات التي يجب ان يكون عليها من يجب ان يكون خليفة ؛ لقد ذكرهم ان الذي يجب ان يتولى الخلافة غير يزيد وأشباه يزيد ، بل شخص مثل الحسين ان لم يكن الحسين نفسه . وأخيراً قام ليضحي بالخليفة من أجل الخلافة ، ليضحي بالحاكم الحقيقي الذي يجب ان يحكم الامة ، من أجل الحكم الحقيقي الذي يجب ان يحكمها . فكانت ثورته ، الشرارة الاولى ، التي أشعلت في قلوب المسلمين النار الكبرى ، التي دعتهم يهبون لتلمس واقعهم الفاسد ... والدعامة الاولى التي أرست قواعد التضحية والعمل الفدائي من أجل الاسلام ، ورسمت عظمة الاسلام ورسالته من خلال وجوده وتمكنه من بعض النفوس المؤمنة به ، كنفس الامام الحسين (ع) ...

فكان ذلك الانقلاب الخطير ، الذي أحدثه الامام الحسين (ع) في نفوس ابناء الامة ، حين لم ير طريقاً آخر غير الذي تنكبه ليصحح الانحراف القائم . وسأحاول في فصل قادم ان أبين مدى الانحراف الذي وصلت اليه الأمة ، وردود الفعل السلبية والايجابية التي حدثت نتيجة قيام الحسين (ع) بثورته الانقلابية ، وابين مداها البعيد في احداث التغيير اللازم .

الفصل الثالث

العقلية الاسلامية



— ١ —

في صراعه المستمر مع الجاهلية ٭ بكل ما كانت تغرسه في عقول الناس من عادات وطرائق للسلوك ، أراد الاسلام ، خلال سيره الحثيث في الطريق المرسومة له ، ان يطبع عقول هؤلاء النـاس بطابعه ، ويجعلهم يفكرون بعقليته ..

ولا شك ان العقلية الاسلامية ، التي يرى الاسلام ضرورة تمركزها في ذهنية الفرد ، هي الموجه الاول والفعال في سلوك الفرد المسلم ، وهي المحور الاساسي الذي تتركز حاله . وتدور في فلكه مجموعة العادات والمثل وطرائق السلوك المختلفة ...

فوجود العقلية ــ أي عقلية ــ ضروري لصبغ الذهن الانساني بطابع خاص من التفكير ، وتزويده بمجموعة مثل ومباديء لا تخرج بكليتها عن حدود هذا الطابع ، ومن ثم ، لتمييزه بسلوك معين لا يتخطى حدود هذه العقلية . وفي الوقت الحاضر : لنأخذ مثالا على ذلك ، العقليتين الرأسمالية والشيوعية ، بأعتبارهما تمثلان الآن قوتين رئيسيتين فعاليتين في توجيه كثير من المجتمعات الانسانية ، فنجد ان العقلية الرأسمالية ، تحاول ان تؤكد على الايمان بالفرد ايمانا مطلقا لا حد له ، وترى ان هذا الفرد ــ خلال سيره الجاد لاثبات اهميته كفرد له شأنه ــ يحق له ان يسلك جميع الطرق التي يمكن ان تؤدي لاثبات هذه الاهمية ، مهما تكن هذه الطرق ، وتدفعه بالتالي

٭ معظم مواد هذا الفصل مأخوذة من كتابي « منهاج الاسلام في التربية » ، مع تبديل وزيادة فيها يقتضيه سياق هذا البحث .

الى اتباع أي ضرب من السلوك الذي يراه ــ بنظره ــ ملائماً • وهي تحاول غرس القيم والمبادىء الرأسمالية في نفوس الافراد ، وتحاول على ضوء تلك القيم ، ايجاد نوع خاص من السلوك ، هو السلوك الرأسمالي ، والذي هو ــ في النهاية ــ نتاج العقلية الرأسمالية •••

بينما تؤكد العقلية الشيوعية على المجتمع ، فتؤمن به قبل ايمانها بالفرد، وان كان على حساب الفرد والمجتمع في بعض الاحيان ، فتحاول غرس جميع القيم والمبادىء الشيوعية ، في نفوس الناس ، كما تحاول أيضاً ان توجد نوعاً من السلوك يلائم العقلية الشيوعية وهو السلوك الشيوعي ، والذي هو في النهاية أيضا نتاج العقلية الشيوعية •••

❋❋❋

وكانت مهمة الاسلام في محاولة خلق تلك العقلية ، تعتمد أولاً وقبل كل شيء على مدى استعداد الناس لفهم الاسلام والايمان به ، وعلى مدى استعدادهم ، قبل ذاك ، للايمان بالله ، المرسل الحقيقي للاسلام وواضعه على طريق البشر •••

ومن الطبيعي ، أن يختلف الناس ، في مدى تقبلهم لما جاء به الاسلام ، وذلك أمر لا نرى فيه أي شذوذ او غرابة ، لما جبل عليه الناس ، من اختلاف في النزعات والاهواء ، ولما يجيش في صدورهم من عوامل متنوعة من الغرائز والعواطف ، من حب وكره ، وانانية ، وتفان في سبيل الغير ، ومنفعة شخصية، وسعي في سبيل النفع العام ، وأخيراً ، لاختلاف الناس في مدى ذكائهم ومستويات تفكيرهم •

وكان نتاج السلوك الذي سلكه المسلمون ، خلال الحقب الممتدة من تاريخهم وتاريخ الاسلام ، يدلل بصوره أكيدة على ما نقوله هنا • ففي بداية

انطلاق الدعوة الاسلامية ،وخلال الفترات القصيرة ، التي اعقبت تلك البداية، وعلى امتداد ما أتسع من دفعة الزمن ، الى يومنا هذا ، نرى اختلاف الناس من حكام ومحكومين ، في نوع العقلية التي حملوها ، ومن ثم في نوع السلوك الذي سلكوه .

— ٢ —

ولم يكن الاسلام وحده ، قد حاول ان يرسخ عقليته في نفوس الناس ، ليقينه من انها الموجه الاساسي للسلوك ، بل حاولت ذلك جميع المبادىء والاديان والعقائد التي ظهرت قبل الاسلام وبعده ..

ففي سيره المتواصل ، خلال الطريق التي أراد من خلالها استشفاف الحقيقة والوصول الى رأي قاطع حول ما حدث ويستجد من احداث في هذا الكون ، حاول العقل البشري أن يكون لنفسه أراء ومفاهيم ينطلق من خلالها التفسير جميع الظواهر والاحداث التي تلوح له بين آونة وأخرى ، ولاستخلاص سلوك أمثل يراه أهلا للاتباع ...

ولعل للعقل الانساني ، باعتباره الاداة الفعالة التي يحاول الانسان بها استقراء جميع ما يعترض سبيله من احداث ، وما يمر به من مشاكل ، الدور الا بلغ والاهم ، في محاولة صيانة الانسان عن الخروج من انسانيته التي يتمتع بها ، الى حال لا تزوده الا بنمط من التفكير ، يدنو به الى سلوك هو الى سلوك الحيوان أقرب .

فقد حاول هذا العقل ، خلال سياحته الطويلة عبر الزمن ان يكون لنفسه مفاهيم ونظريات وأراء حاول ان تكون هي المنطق الاساسي للسلوك البشري . وطبيعي اننا ، من خلال اكتشافنا ، ان مستوى التفكير الذي بلغ اليه الانسان المعاصر ، قد وصل الى مرحلة تفوق وتختلف عن تلك التي

وصلها قبل ألوف السنين ، نتيجة المحصول المتراكم من الخبرات البشرية ، ونتيجة لما استجد في هذا الكون من احداث ، تتوصل الى حقيقة مهمة وهي :

ان العقل البشري يمر — شأنه في ذلك شأن أي كائن عضوي — بمراحل نمو قد لا تقف عند حد معين ؛ وانه في انطلاقته نحو النضج ، يسير نشطاً متوثباً مرة ، ويكبو خاملا كسولاً مرة أخرى ، ويحقق في مدة قصيرة من عمره مالم يحققه في اضعاف تلك المدة .. ولعله في سيره نحو النضج ، قد مرَّ بمراحل وادوار كان لابد له فيها من الاعتماد على أمور قد لا يكون له قبل بالخوض بشأنها ؛ فظواهر الكون المختلفة ، والحياة الزاخرة بمختلف أوجه النشاط ، جعلته في معظم الفترات ، يلجأ الى طلب تفسيرات عديدة عنها ، قد لا تمت اليه بصلة ، وذلك كي يصل الى راحة واستقرار نسبيين ، يفقدهما أياه عجزه عن تفسيرها بنفسه .. وكان من الطبيعي ان تعرض تلك الامور ، التي قد يرى العقل عجزاً في نفسه ، عند الخوض بشأنها ، من قبل اناس معينين ، همهم الاول هي تكوين تصرير اعتقادي معين ، او نظرة مبدئية خاصة ، فعرضوا الامر على شكل مسلمات طبيعية ، ليس للعقل بها شأن ، أرادوا ان ينفذوا من خلالها ، الى عقول الناس ، لغايات يعرفوها هم ، واعطوا تفسيرات لكل ما ورد على العقل من مسائل وواجهه من مشاكل ...

وهكذا كان :

فعندما استأثرت باهتمام العقل الانساني مشكلة الكون وخلقه ، طرحت عليه تفسيرات كان اكثرها (ذا طابع ديني) ، طرح من قبل كهنة الاديان المختلفة ، باعتبارهم القيمين على امور أديانهم والمتولين شؤونها ...

وكانت الاديان التي ظهرت قبل آلاف السنين ، وتلك التي تدنو الى عصرنا كثيراً من تلك ، كالديانة القيدية والبوذية والكونفوشيوسية والمانوية

والزرادشتية والوثنية وغيرها ، مثل ديانات مصر القديمة ، ذات أثر فعال في طرح أهم القضايا التي شغلت العقل البشري ، كحقائق ثابتة ، لا يجب الاختلاف بشأنها او المماراة فيها ...

وكان العقل البشري ، أيام قوته وضعفه ، وارتفاعه وكبواته ، وتقدمه وتأخره ، يتأرجح بين ما تطرحه مختلف العقائد والاديان المتعددة ، وبين ما ينبعث من ذاته من تصورات خاصة ، قد تماشي الفطرة الانسانية وقد تضل بها ، ويحاول ان يقيم توازناً يقيه العثرات ...

ولعل للمسيحية ، واليهودية ، بأعتبارهما أهم وابرز ديانتين ظهرا قبل الاسلام ، دور فعال في طرح تفسيرات معينة على العقل البشري ، وجعله يسير وجهات سير معينة ، وان كانت تفسيراتها لا تكاد تختلف عن تلك التفسيرات التي كانت سائدة قبل ظهورها « كمسألة التثليث الالهي » التي جاءت بها تلك الديانات القديمة ...

ولم تسكت الفلسفة ، في أي وقت من الاوقات ، بل حاولت ان تدلي دلوها في جميع المضامير المختلفة ، وحاولت هي الاخرى ، أن تشرح كل ما استغلق من تفاسير ، وكانت الاديان والفلسفات والنظريات المختلفة ، لا تتشابه من حيث محاولتها السيطرة على العقل البشري فبينما تحاول واحدة ان تعطي رأيها فقط حول المسائل المختلفة ، تحاول أخرى ان تتدخل في اخص خصائص السلوك البشري ، وترى وجوب تسييره على طريقها ، وعدم الاكتفاء منه بموقف المتفرج او المدافع الضعيف ... ونرى الدعوات الفلسفية والدينية ، تتراوح شدة وضعفاً في محاولة التدخل بحياة الانسان ، ولا تزال كذلك ، الى يومنا هذا ...

***

— ٣ —

ولم يقف العقل البشري ، خلال مروره بكل هذه الاديان والفلسفات ، ومن خلال تطلعه نحو مختلف الاراء الاجتماعية والفلسفية ، متفرجا ، مترقبا — في غمرة الصراع ، انفراج الازمة التي تمر عليه ، بل كان له دور عظيم في توجيه ذلك الصراع ، وكانت له صولات وجولات مع من جاءه بالافكار والآراء المختلفة ، فنبذ منها ما نبذ ، وأخذ منها ما أخذ . نبذ ما لم ترتأي الأخذ به فعدل عنه ، وأخذ ما رأى ان لا سبيل الى نبذه فسار عليه .. وكانت العقلية الانسانية في كل ذلك ، هي نتاج ما آمن به الفرد من مثل ومباديء واراء .

***

وكان موقف العقل البشري مع الاسلام ، شأنه في ذلك شأنه مع أي فلسفة او دين آخر ، هو موقف الحذر المتيقظ المستعد لكل صغيرة وكبيرة ، بل لعل موقف الحذر تجاه الاسلام كان اشد ، لكثرة ما مر به من مباديء وفلسفات عانى منها الامرين ، ورأى منها ما ينكر ... وكان اذا تقبل الاسلام — وهذا التقبل على درجات أيضاً — اقتضى منه الامر ان تتكون لديه نظرة اعتقادية بالله قوامها الايمان به وبقدرته التي لا حد لها وتنزيهه من كل شريك أو نقيصه ، ومن ثم ، الايمان بما يريده الله ... وهو الاسلام ...

فمن خلال اعتقاد المسلم بالله ، وايمانه به ، تتكون لديه نظرة اعتقادية خاصة تخلق عقلية معينة قوامها هذا الايمان ، عقلية تخلق ضميراً يشابهها وتنبعث عنه جميع الاشكال السلوكية ، التي ينبغي أن تكون اسلامية ...

قال الرسول (ص) « يقول الله عز وجل ، حسب عبدي المؤمن حقيقة

ايمانه في ضميره وصدق ورع نيته حتى أجعل نومه عملا وصمته ذكرا » [١].

فرز (ص) حقيقة السلوك الانساني الى الضمير الذي ينبعث من العقلية المعينة الخاصة ، والتي هي العقلية الاسلامية عند الفرد المسلم ...

وقد قال الرسول (ص) « طوبى لعبد طاب كسبه وحسنت خليقته وصلحت سريرته ، وانفق الفضل من ماله ، وترك الفضول من قوله . وكف عن الناس شره وانصفهم من نفسه ، انه من عرف الله خاف الله » [٢] .

ان دور الاسلام يأتي هنا ، في محاولته الجدية للتدخل في حياة الانسان، فهو حينما اعطى التصور الاعتقادي الكامل عن حقيقة الاسلام ومنشئه .. توقع من الفرد سلوكاً معينا ، ارادة ان يكون السلوك الاسلامي ، والسلوك الاسلامي فقط ، ولما كان السلوك البشري يتعامل مع كل صغيرة وكبيرة مما يوجد في هذا الكون ، اصبح حتاماً على الاسلام ان يمد السلوك البشري بكل ما يمكن ان يوفره لتسيير هذه المعاملة وتوجيهها الوجهة اللازمة ، وان يعطي رأيه تكل صغيرة وكبيرة من شؤونها ...

وهكذا .. كان ذلك العطاء الضخم من التشريع الاسلامي ، الذي أراد أن يخلق — قبل كل شيء — عقلية اسلامية لتطبيقة ...

وقد أعطى الاسلام مع العقلية الاسلامية ، السلوك الاسلامي المطابق لهذه العقلية ، ولم يترك الانسان تائهاً يرتب في ذهنه كيفية تدبير أموره ، بل اوجد له مخرجاً واسعا لكل افعاله وتصرفاته ..

***

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٣ .

- ٤ -

وقد كان الامر يقتضي ، لقلب عقلية الانسان من عقلية جاهلية الى اسلامية ، قوامها الايمان بالله ، ان تتمثل على شكل حركي تظهر فيه بصورة واضحة ، ويقتضي وجود ممثل أيضاً ، تتمثل فيه الخصائص اللازمة ، لكي يكون القوة الدافعة المغيرة ، والسفير المثالي الذي ينفذ بدقة واحكام كل ما يطلب منه من قبل المسؤولين عنه والمتولين شؤونه ...

وكان ذلك السفير محمداً (ص) ، الذي كان المصداق الحي للرسالة الاسلامية ، والمجسد الحقيقي للتشريعات التي جاء بها من عند الله ؛ فكان بايمانه وسلوكه ، الرمز الحقيقي للشخصية الاسلامية بعقليتها وسلوكها ، الذي يوازي خط سيره ، خط سير هذه العقلية .

وقد أراد الرسول (ص) ان يجعل الاسلام يتجسد بواقع حركي ، لا يتمثل فيه هو فقط ، بل يتمثل بتجمع يكون في أساسه النواة الاولى للمجتمع الاسلامي ...

ولم يك بد للاسلام من مسلمين ، يؤمنون بالله ويطبقون احكامه ، لكي يظهر بشكله الخاص به . وكان لابد من تبديل العقلية الجاهلية الى عقلية اسلامية ، تبديل تلك العقلية التي تؤمن (بالكهانة ، وكان موضوعها الاخبار عن أمور عينية بواسطة استراق الشياطين السمع من السماء والقاء ما يستمعونه من الغيبيات ، وتؤمن بالاصنام وتشركها مع الله ، وتؤمن بالزجر والطيرة وهو زجر الطير حتى يطير ، لكي يستدل بطيرانه على بعض الامور ، وتؤمن بالميسر والازلام ونكاح المقت ، وهو نكاح زوجة الاب عن طريق توارثه ، وتؤمن بوأد البنات واكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الدم وقتل الولد

خشية الاملاق وضرب الثور ليشرب البقر وتعليق سن الثعلب وسن الهرة وحيض السمرة خوفاً على الصبي من خطفة او نظرة ، وتعليق كعب الارنب ليقي من العين والسحر ووطء المقاليت القتلى (المقلاة هي التي لا يعيش لها ولد) ، لكي يبقى أولادها ، وتؤمن بكي السليم من الابل ليبرأ الجرب منها ، وشق البرقع والرداء لدوام المحبة ورمي سن الصبي المثغر في الشمس بسبابته وابهامه ليأمن عليها من العلل ويستبدلها بأحسن منها ، والتعشير ، أي النهيق كالحمار خوف الاصابة بالافات وتستسيغ شرب الخمر والقمار والزنا وتؤمن بالقبيلة وتتمسك بالعصبية القبلية ...) [٣] ...

...الى عقلية اسلامية تختلف عن تلك اختلافاً جذريا ؛ الى عقلية تؤمن بأن « الله لا اله الا هو الحي القيوم » [٤] وانه « احد ، لم يلدولم يولدولم يكن له كفواً أحد » [٥] وتؤمن بأن في الخمر والميسر أثم كبير « يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير » [٦] وتؤمن بأنه قد « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمتحنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق ... » [٧] وتؤمن بأن « لا عدوى ولا طيره » [٨] وتؤمن أيضاً بحرمة ان يرث أحد النساء . كرهاً « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا

---

(٣) يراجع بالتفصيل حول ذلك صبح الاعشى ج ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٨ .

(٤) البقرة ٣٥٥ .

(٥) سورة الاخلاص .

(٦) البقرة ٣١٩ .

(٧) المائدة ٣ .

(٨) من قول رسول الله (ص) ، زهر الالباب — القيرواني ج ١ ص ٤٧٨

النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن به » [٩] وتؤمن أيضاً بحرمة نكاح ما نكح الآباء « ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتساً وساء سبيلا ••• » [١٠] •

وتؤمن بأن وأد البنات هو من عظائم المنكرات : « واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » [١١] وبحرمة القتل « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ••• » [١٢] « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا •• » [١٣] ولا ترى الاقتراب من الفواحش مهما كانت الاحوال •• « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن ••• » [١٤] « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا •• » [١٥] وترى ان العزة ليست للقبيلة او العشيرة بل « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » [١٦] وان الاوثان التي كانت تعبد من دون الله لا تستطيع ان تأتي خيراً او تدفع شراً « انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكاً ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ••• » [١٧] « ••• والذين تدعون من دونه ما يملكون

(٩) النساء ١٩ •

(١٠) النساء ٢٢ •

(١١) التكوير ٨ ـ ٩ •

(١٢) الاسراء ٣٣ •

(١٣) الاسراء ٣٢ •

(١٤) الاسراء ٣٢ •

(١٥) الانعام ١٥١ •

(١٦) المنافقين ٨ •

(١٧) العنكبوت ١٧ •

من قمطير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ... » [١٨] وتؤمن بأن الناس متساوون بالحقوق والواجبات وان الشرف ليس بالعشيرة ولا بالاهل ، بل بالتقوى ...

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » [١٩] « انما المؤمنون أخوة ... » [٢٠]

كما ان هـذه العقلية تؤمن باشياء جديدة كثيرة لم تـكن معروفة ، كالتصورات الخاصة التيجاء بها الاسلام عن الحياة الدنيا والآخرة ، والقضايا السلوكية وجميع التشريعات المبنية عليها ...

وكان لزاماً على من يريد بناء شخصية اسلامية كاملة ، أن يكون على تسلسل مرتب :

١ ـ تصوراً أعتقادياً كاملاً عن الله ـ سبحانه وتعالى .

٢ ـ عقلية اسلامية اساسها هذا التصور الاعتقادي .

٣ ـ سلوكاً اسلاميـاً مرتكزاً على العقليـة الاسلاميـة والتصور الاعتقادي ...

وهكذا فعل محمد (ص) ليكون من نتاج هـذه النقاط الثلاثـة ـ الشخصية الاسلامية ـ الفريدة ؛ الشخصية الاسلامية التي أرادها ان تتمثل بالحاكم والمحكوم في وقت واحد ..

لقد أراد محمد (ص) ان يكون نفس التصور الاعتقادي عند الجميع لكي يحدد كل واحد مسؤولياته ويراجع نفسه أمام الله ...

---

(١٨) فاطر ١٢ ـ ١٣ .

(١٩) الحجرات ١٣ .

(٢٠) الحجرات ١٠ .

وقد كان (ص) على ضوء ادراك واع وتفهم عميق للمباديء التي أرسل بها من قبل الله ـ سبحانه ـ وعلى ضوء الآية الكريمة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [٢١] ، يرى قبل كل شيء قلب النفس والشعور والعاطفة ، حتى ينقلب المظهر الخارجي والفعاليات العملية للسلوك البشري ؛ فنراه يؤكد دائماً على ضرورة الايمان بالله اولاً ثم الاستقامة ثانياً ، أي السير على طريق الاسلام وتشريعاته ...

ولقد ذكر ابو عمرو ـ سفيان بن عبد الله « قلت يارسول الله قل لي قولاً في الاسلام لا أسأل عنه أحداً غيرك.قال : قل آمنت بالله ثم استقم »[٢٢] ولعل الرسول (ص) يشير هنا الى ما جاء في كتاب الله « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ... » [٢٣] والى قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » [٢٤] .

***

— ٥ —

وهنا لابد ان نؤكد ما ألمحنا اليه سابقاً ، وهو :

ان الرسول (ص) لم تتح له الفرصة الكافية لكي يكون المجتمع

(٢١) آل عمران ١١٠ .

(٢٢) الفتوحات الوهبية ـ لابراهيم المالكي ص ١٩٦ .

(٢٣) فصلت ٣٠ .

(٢٤) الاحقاف ١٣ .

الاسلامي الخالي من الشوائب ، وحتى على نطاق ضيق ، كنطاق مكة او المدينة مثلاً ، لأن شأن النفس البشرية كان في وقته — ولا يزال — امراً عسيراً ، حينما تلقي هـذه النفس بقيادها لمن يريد بها رجوعاً ، ولا تريد الاستسلام للفطرة الصحيحة . وهي ، يتجاذبها ، فيما يتجاذبها ، عوامـل متنافرة مثل الطمع بما تراه من ملذات والحياة الرغدة اليسيرة ، كما يتجاذبها البغض لمن يريد بها سوءاً من جهة وحب الذات حباً اعمى من جهة أخرى — بالاضافة الى ما يمكن ان يتجاذبها من نوازع خيرة ، قد تخرج بها سالة عما يمكن ان يشينها ..

وكان على الرسول (ص) ان يحول الناس الذين يرون ان في الاسلام انتقاصاً لكراماتهم وكرامات معبوداتهم ، ومحاولة لسلبهم سلطانهم وأموالهم، الى اناس يدعون الى الاسلام حينما يلمسوا فائدته العملية عند تطبيقهم أياه .

كان الاسلام بلا شك ، سينظم حياة المجتمع ، ويقيم دعائمه على اسس مكنية من الوفاق والتعاون ، ولا شك ان ذلك سيعود حتماً بفائدته المباشرة على ذلك المجتمع ، لأن الاسلام قد اوجد توازناً معيناً لجميع أمور الناس ، استطاع بواسطته ان يوجد ويوحد طريقة جديدة للحياة ، يحياها الناس ، قائمة على العدل والمساواة ...

ولما كان الناس لا يستطيعون ان يدركوا فائدة الاسلام ويلمسوا من خلاله الفارق بين حياتهم قبله وحياتهم بعده ، الا بتطبيقه، وجعله محكاً لجميع معاملاتهم واعمالهم ، كان هدف الرسول (ص) هو تطبيق الاسلام ...

وكان عليه ، ان يرى الشرارة ، شرارة الايمان بالله ودينه مضيئة في كل عقل ، حتى يضمن تطبيق هذا الدين ، وكان عليه أيضاً ، أن يمد هذه الشرارة دائماً بأقباس من نور لكي تبقى مضيئة ما شاء لها الله ان تبقى ... ولم يكن

اعرفه من النبي (ص) بكيفية ابقاء تلك الشرارة مضيئة ؛ كان كرسول قائد ، شعلة مضيئة تستمد منه تلك الشرارة أقباس انوارها •• وكان ، كرسول لله ، يجب ان يؤمن به كل انسان ، مجسداً حقيقياً للاسلام •• فلم يكن فيه او عليه خلاف •••

***

— ٦ —

ولم يكن أفق رسول الله (ص) في تفكيره ، بالافق الضيق ، وهو ينظر الى أيامه الباقيات ، ويرى في ذهابها ضموراً لشعلة الاسلام التي حملها ••• بل كان تفكير العارف المقدر للامور أقدارها وعواقبها ••• الوازن أيامها بميزان الخبير المدقق •• فعمل على ان تبقى تلك الشعلة في موضع لا يكون عليه خلاف أو شك ، لكي تستمر على مد الناس بنورها واذكاء شرارة الاسلام المقدسة في كل نفس ••• وكان ذلك الموضع هو امين يأتمنه على اذكاء شرارة تلك الشعلة المقدسة •••

وقد كان في اندفاع الحوادث ، وتعاقبها السريع ، ما عمل على ان يقام بين ذلك الامين وبين حقه في اذكاء تلك الشعلة ستاراً ، كان من شأنه ان يجعل المجتمع لا يرى طريقه الاسلامي بوضوح ، وحاول صاحب تلك الشعلة ان يزيل ما حال بين الاسلام وبين الناس ، فأستطاع بمقدار •••

وقد كان قرب الناس من الجاهلية ، وبقاء بعض جذور العقلية الاولى متأصلة في نفوسهم ، والعوامل التي تلعب بالنفس البشرية من نزعات مختلفة خيرة وشريرة ، وتضرر بعض المصالح تضرراً فعلياً من وجود الاسلام ، ومحاولة

آخرين الاستفادة والاثراء المادي والزعامة على حسابه وعن سبيله ، أثرها الفعال في حرف المجتمع عن خط الاسلام الصحيح ...

وقد كان حرياً بالرسول (ص) ان يعالج كل انحراف قائم لو انه عاش بعد ذلك ببضع سنوات .. ولكن كل ذاك قد برز بعد وفاته مباشرة ، فبرزت معه تلك العوامل والتناقضات مجتمعة ...

***

— ٧ —

لقد كان يلزم الامة ، أن ترد لها عقليتها الاسلامية ؛ فبدون هذه العقلية لا يمكن ان تعيش كأمة « اسلامية » لهـا كيان اسـلامي وارتباطات اسلامية صرفة .

وان المتتبع للخطوات التي سار عليها كل من الرسول (ص) والامام علي (ع) ومن بعدهما الحسن والحسين (ع) ، يرى ان هنالك سيرا تكامليا في سبيل تكوين هذه العقلية وتنشيطها ، بدأه الرسول (ص) واستمر على طريقة الائمة الثلاثة (ع) من بعده .. وهذا السير التكاملي برز من عدة نواحي نستطيع ان نجملها بما يأتي : —

١ — حاول كل منهم ان يرسم صورة حية للاسلام عن طريق ابرازه بشكل حركي يتمثل بشخص معين او جماعة معينة ..

٢ — حاولوا — كل منهم بطريقته الخاصة التي تسترعيها ظروفه — ان يبرزوا الاسلام كقوة فعالة لا يمكن الاستغناء عنها أو العيش بدونها ...

٣ — التزام الثلاثة الاخيرين التزاما صادقا وصريحا وبدون اي انحراف

ولو كان بسيطا ، بالاسلوب والطريقة وخط السير التي جاء بها الرسول (ص) واتباعه بكل خطواته واعماله ، واشارتهم الى ان كل ما كان يصدر منهم انما هو بايحاء من الرسول الذي كان يستمد الاوامر من الله سبحانه ...

ولعلنا نستطيع ان نوضح هذه النقاط الثلاثة ، فيما يلي من الصفحات القادمة ، ونبين ولو طرفا من عملية السير التكاملية التي انتظم في سلكها هؤلاء الاربعة (ع) ...

فطبيعي ان الرسول (ص) ، وهو الرجل المختار من قبل الله - سبحانه - لتبليغ رسالة الاسلام،كان هو المجسد الحقيقي لهذه الرسالة، وقد أبرزها من خلال سلوكه الذي كان يعتبر بحد ذاته مصدرا مهما من مصادر التشريع الاسلامي .. وقد كانت افعاله واقواله ، المحور الاساسي الذي ينبغي ان تدور حوله جميع التصورات المختلفة ، والبؤرة التي تحدد مدى فعالية الاسلام وقابلياته للأخذ بيد البشرية نحو الحياة المثلى ...

وقد عمل الرسول (ص) من خلال سيرته الخاصة ، ومن خلال ايجاد اناس ملتزمين بالاسلام التزاما صحيحا ، ان يرسم صورة معينة لمجتمع اسلامي مصغر ، بل انه قد نجح فعلا بايجاد ذلك المجتمع على نطاق اكبر ، وان لم يكن بالصورة التي كان يريدها تماما ...

فكان وجود هذا المجتمع الذي بناه الرسول (ص) ، وطريقة معاملاته وسلوكه ، المثال الحي الذي عكس لنا نوعية الارتباطات السليمة التي اوجدها الاسلام بين افراده ككل من جهة ، وبينهم وبين انفسهم من جهة أخرى ، وكذلك بينهم وبين الله - سبحانه - من جهة ثالثة ... فاستطاعت التشريعات الاسلامية ان تبرز بشكل واضح ، وان تأخذ دورها في مجال التطبيق الفعلي وان يلتزم الناس بها التزاما قويا ..

هذا من ناحية ...

ومن ناحية أخرى : —

عمد الرسول القائد (ص) على تثبيت فكرة ضرورة الدين في نفس المجتمع الذيأوجده ؛ وقد جعلهم — بما قدمه الاسلام من عطاءات ملموسة — يدركون الفرق بين واقعهم المعاشي فعلا وبين واقعهم الذي كانوا يعيشونه قبـلا . . .

وقد كان ذلك ضمن طريقة مركزة هادفة اتبعها الرسول العظيم (ص)... ومع أن كثيرين قد حاولوا ان ينحرفوا عن هذه الفكرة ويشذوا عنها ، الا أنهم اضطروا تحت قوة الظروف التي وجدت من تمسك غالبية الناس بالاسلام ان يسايروا الوضع وبالتالي انعدام أي تأثير لهم يمكن أن يؤدي الى حرف المجتمع القائم عن خط سيره .. ولعلنـا لا تعوزنا بهذا الصدد الامثـلة التاريخيـة ...

والملاحظ : —

ان الذين حاولوا ان ينحرفوا عن الاسلام ويشذوا عنه بعـــد وفاة الرسول (ص) كانوا اكثر من الذين حاولوا ان ينحرفوا عنه في حياته ... وقد برزت دعوتهم الى الانحراف بشكل سافر بعد وفاته ، اما على شكل ارتداد فعلي وعلني عن الاسلام ، أو على شكل تمســك جـاهلي ببعض الارتباطات والافكار القديمة ، او على شكل تشريعات وجدت من قبلهم حاولوا ان يضفوا عليها صفة الاسلام وهي لا تمت اليه بصلة ...

وقد أشرت الى أن الرسول قد حاول ان يوجد ممثل للشريعة يقوم مقامه ... ولعلنا لا نأتي بجديد حينما نؤكد على ان ذلك الممثل الذي حـاول الرسول ايجاده هو علي ، أمير المؤمنين (ع) . وقد اراد الرسول (ص) في

محاولته تكوين ممثله ليكون كما كان هو (ص) ، ان يربيه تربية خاصة ، يسير بموجبها ـ في النهاية ـ على خط سير الرسول السلوكي ••• وعلى ذلك وجب علينا ان ننظر : ـ ما مدى الالتزام الذي سلكه الامام علي (ع) وتعهد بموجبه السير على خط سير الرسول (ص) •••

والجواب تعطينا اياه تلك المجموعة الهائلة من الروايات والاخبار التي زودنا به عنه من قبل مناصريه ومناوئيه ، والتي لم تستطع واحدة ، رغم كل شيء ان تشير الا انه قد انحرف ولو انحرافا بسيطا عن خط الاسلام وسيرة الرسول •• بل ان تلك الروايات والاخبار راحت تؤكد لنا انه كان الشخصية الاسلامية النموذجية التي كان هدف الرسول (ص) ايجاد مثلها •••

ورغم الملابسات والظروف التاريخية ، التي حاولت ان تجعل اناس أقل منه كفاءة وجدارة ، يتسنمون مركز القيادة للعالم الاسلامي •• الا اننا نكاد نلمح ، بل نرى بصورة واضحة ، ان أولئك الذين هيىء لهم ان يتسنموا ذلك المركز ، كانوا يعترفون بكل مناسبة بجدارة امير المؤمنين (ع) ومنزلته واحقيته بقيادة المجتمع الاسلامي •• الا أن المغالطات والطموح الى السلطة والسيادة واسباب أخرى لا مجال لذكرها الآن ، جعلهم لا يضعون الامور في نصابها الطبيعي ••••

ولنا من هنا انطلاقة بسيطة نحدد من خلالها شيئا ما :

وهي : ـ

ان عدم وضع الامام (ع) في وضعه الطبيعي كان ذاته ثورة ••• ثورة قام بها من تسنموا مركز القيادة على انفسهم من حيث لم يشعروا ••• فان أولئك الذين يعرفون مركز الامام (ع) وفضله ، والذين كانوا يرون انه يجب ان يتسنم مركز القيادة ، كان ثقيل عليهم ، بل يحز في نفوسهم ان لايحتل

الامام مكانه اللائق به ... وكان يريهم انحلال المقاييس وانحرافها ، فيولد ذلك في انفسهم ثورة ضد كل ما هو غير صحيح ...

وكان سكوت الامام (ع) ، كما أكد لنا التاريخ ، وكما نستدل عليه من معرفتنا بالامام ، غير منبعث عن خوف أو تراجع ، فشجاعة الامام (ع) وايمانه اعظم من ان تجعلنا نعتقد بانه كان خائفاً من المطالبة بحقه ...

وكانت الصفوة الواعية تدرك ذلك ، وتدرك مدى الحال التي سيبلغها الاسلام والمسلمون اذا قام الامام (ع) مطالبا بحقه بحد السيف ... وقد كان لا يجدي حينذاك غير حد السيف لاسترداد الحق المغتصب ...

ولعله كان اعرف من غيره بالحال التي سيصير اليها الاسلام فيما لو قام مطالبا بحقه بالقوة .. ولعله كان يدرك ان الاسلام الذي كان قريب العهد بعقليات الناس ومنطلقاتهم السلوكية ، كان سينحسر حتما او يقضى عليه لو كان هناك أقل خلاف أو صراع بين (ممثلي) الاسلام الحقيقيين وغير الحقيقيين ...

وحينما هيء له في النهاية ان يمسك بزمام الامور ويجلس في مكانه الملائم .. كانت مخلفات العهود السابقة التي اعقبت عهد الرسول (ص) قد أوجدت ثغرات واسعة في صفوف المسلمين وعقلياتهم ، فكانت تلك الفترة التي كان مقدرا للاسلام فيها ان يعم وينتشر في كل بقاع الارض ، فترة تأخر نسبي لما كان مقررا ان يصيبه الاسلام من تقدم وانتشار ....

وقد حاول (ع) ان يبين ان الاسلام جدير بأن لا ينحرف عنه او يحاد عن طريقه ... فهو ... قد هيء له في مناسبات شتى — قد يجد له فيها مخرجا شرعيا — ان يمسك زمام الامور بيد حديدية لو أنه اتبع بعض الطرق الخاصة التي اشير عليه باتباعها .. كمصانعة معاوية واقراره على ولاية

الشام ريثما يتم له الاستعداد الكافي لتصفية الوضع وتنحيته عن تلك الولاية وكان معاوية قد طلب منه ولاية الشام ثمنا لسكوته وجلوسه عن حرب الامام (ع) .. الا ان الامام لم يكن يرى ذلك ، بل كان يرى ضرورة السير على طريق الاسلام البيضاء وعدم الانحراف عنها ولو قيد شعره ..

ونحن لو فكرنا بعقليتنا ، لرأينا ان الامام (ع) كان يحق له ، بل يجب عليه ان يعد معاوية بولاية الشام ريثما يتم له تصفية الاوضاع ، فيستطيع بعد ذلك ان ينحيه عن تلك الولاية — لان معاوية بسلوكه اللااسلامي — كان جديرا بذلك ، بل كان بالاضافة الى ما سبق جديرا بعقاب صارم ينزل به ..

الا ان عقلية الامام الاسلامية ، تلك العقلية التي تشربت الاسلام ووعته طريقا للبشرية .. لم تكن ترى ذلك ، بل كانت ترى ان الحيلة حتى مع المنحرفين والشاذين عن طريق الاسلام لا محل لها في نفس أي مسلم .. فالمسلم يجب ان تكون نفسه نقية بيضاء لا مجال فيها لاي شائبة أو زيغ .. والحيلة قد تقابل بحيلة مثلها ...

وربما يكون في هذا الصدد ، ان معاوية قد يستغل تثبيت الامام له على ولاية الشام فيقول « انه أقرني على ولاية الشام لانه رآني جديرا بها .. وانا لا أقره على أمرة المؤمنين لاني لا أراه جديرا بها ... » فيكون بذلك قد فتح ثغرة قد يمكن النقاد منها للطعن بالامام (ع) ...

فتلك النفسية ، وتلك العقلية ، التي لا ترى الانحراف عن مبادىء الاسلام وطريقه الواضح المستقيم ، جعلت الفئة الواعية ، وحتى غير الواعية تفكر في ذلك الاسلام العظيم الذي يخلق اناسا مثل (علي) ، يسلك سلوك رسول الله (ص) ويعمل عمله ...

وكانت سياسته (ع) هي سياسة الخليفة والتي تختلف عن سياسة

الملك ••• لان سياسة الخليفة تقاس براعتها واتقانها ، تمقدار ما عـــده ، الحذق والمهارة لتنفيذ احكام الشريعة تنفيذاً حكيماً من دون ان يبدل او يحرف •• ومتى ما كان الخليفة غير ملتزم باحكام الشريعة في سياسته ، يعتبر بحكم المنطق خارجاً عن الدين ، او بالأحرى عدواً له ••

بينما سياسة الملك ، لا تلزمها أي صيغة ايجابية تجاه الدين ولا يربطها أي رابط به ، فهي تتلون مع الظروف وتتبدل مع الاحداث ، والملك السياسي هو الذي يستطيع ان يتغلب على مختلف الازمات والرجات التي تحدث في بـــلاده ، او التي تصيبه من الدول الخارجيـــة المجاورة بمختلف الاساليب والتصرفات •••

فشتان اذاً ما بين سياسة الملـــك الذي لاهم له الا منفعته المجردة ، وسياسة الخليفة الذي لاهم له الا أن تظل كلمة الله — هي العليا ••• فهو نائب رسول الله وسياسته هي سياسة رسول الله (ص) نفسها ••• وشخصيته هي الشخصية الاسلامية المثلى ، بكل ما تشتمل عليه من أبعاد وتمتاز به من خصائص •••

***

— ٨ —

ان الاحداث التي عاشها الحسن (ع) ، يمكن ان تكشف لنا مدى التزامه بالسير على خط الاسلام ، كما يمكن ان تبين لنا مدى وعمق العقلية الاسلامية التي كان يتمتع بها ••• وبالرغم من أن التزامه المثالي بالسير على

خط الاسلام ، جعل حتى ألد اعداءه يعترف بذلك ، بل يشير اليه صراحة [٢٥]، الا اننا يمكن ان نلمس ذلك دون اللجوء الى تلك الشهادة وامثالها .. ومن خلال استقراء سيرة الامام الحسن استقراءً مضبوطا ...

وليس أدل على التزامه بخطة السير التي تعهدها رسول الله (ص) بالرعاية والاهتمام ، ما نراه من اجماع من كتبوا عن سيرته من الذين عاصروه، على انه قد سلك السلوك الاسلامي الامثـل .... ولعلنا ، لو رحنا نؤكد على ذلك بما يتوفر لدينا من أدلة وبراهين ، لما توصلنا الى نتيجة غير التي توصلنا اليها هنا ...

الا ان الاسئلة التي تبرز هنا هي : —

١ — ما هي الطريقة التي حاول بها الامام الحسن (ع) ان يبرز الاسلام ويجسده تجسيداً واقعياً ، ليجعل الناس يعتقدون بالتالي ضرورته وارتباطه الوثيق بحياتهم كبشر ؟

٢ — ماذا كان رد الفعل الصادر منه تجاه التخطيات الواسعة لحدود الاسلام التي صدرت عن المجتمع والفئة التي قدر لها ان تمسك شؤون ادارة ذلك المجتمع ؟

٣ — وهل كان مقدراً له ، لو انه أراد ان يثور ليستشهد ، أن يؤدي دوراً فعالاً في ارجاع الامة عن انحرافها كما فعل الامام الحسين (ع) حينما ثار ثورته المعروفة ؟

---

(٢٥) فقد ورد في قول لمعاوية عن الحسن (ع) : — « ما تكلم عندي أحب الي اذا تكلم ان لا يسكت من الحسن بن علي وما سمعت منه كلمة فحش قط » راجع مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٢٠١ . ؟ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠٢ .

ولو أردنا ان نجيب على السؤال الاول ، فاننا لن نعدو سوى ان نكرر ما قلناه قبل قليل ، وهو : ان الامام الحسن (ع) بسلوكه وانتهاجه خط الاسلام ، وفي ادارة الاحداث التي هيء له ان يمسك بزمامها ، قد أبرز الاسلام بشكله الحركي الحقيقي ، وعرضه عرضا يتلاءم والشكل الذي يراد رسول الله (ص) ان يعرضه به ...

على اننا لو أردنا الجواب على السؤال الثاني ، لرأينا ان ردود الفعل التي صدرت عن الامام الحسن (ع) ، كانت يمكن ان تكون نفس ردود الفعل التي كانت ستصدر عن أبيه ، امير المؤمنين (ع) لو كان مكانه ؛ فالاحداث التي تعاقبت سريعاً منذ استشهاد امير المؤمنين (ع) بسيف ابن ملجم ، حتى قيام معاوية بقواته الكبيرة لمناوئته ، وحتى تخلي معظم اصحابه عنه تحت ضغط مختلف الاغراءات والتهديدات ، لم تتح له ان يعالج الامور بافضل مما عالجها ، بل لعل العلاج الذي قدمه كان انجح علاج على الاطلاق..

فكان معنى اقدامه ، بما تبقى له من انصار قليلين ، لمحاربة معاوية في سوح القتال ، هو الانتحار بعينه ؛ انتحاره وانتحار جميع من لهم علاقة به ، بعيدة كانت او قريبة ؛ ولن يصيب منه بالتالي ، سوى ترك الميدان فارغاً ليصول فيه ويجول من يريد ان يتنكب طريقاً غير طريق الاسلام ... وكان معنى ذلك ان تخلو الارض من الممثلين الحقيقيين للاسلام بانقطاع سلالة ذلك البيت الذي قدر له ان يشرق بنور النبوة ...

ونحن لو علمنا مقدار ما يقدمه من بقي من ابناء هذا البيت ، من عرض مشرق للاسلام وتبيان خطوطه ، وتوضيح نهجه ، لادركنا مدى الخسارة التي كانت ستحيق بالاسلام لو قدر للبقية من ذلك البيت ان تندثر ... لتقبع بعد ذلك في زوايا النسيان ، بفعل عوامل الزمن وبفعل وسائل الاعلام المعدة

لذلك •• !

ولعلنا يمكن ان نلمح جواب السؤال الثالث الذي عرضناه قبل قليل من خلال الاجابة المقدمة على السؤال الثاني ؛ فاستشهاد الحسن وأخوته وصحبه وجميع انصاره ما كان ليحدث الهزة المطلوبة في ضمير الامة ، وما كان ليوقظها من السبات الذي وطنت نفسها على الاستمرار فيه •• لأن السلطة التي امسكت بزمام الامور فعلاً ، بما تهيأت لها من وسائل اعلامية قوية من محدثين وقصاصين ، حاولت ان تبرز نفسها ، كأنها القوة القوامة على الدين والملتزمة بتطبيقه ! ! وحاول من تزعم تلك السلطة ، أن يسدل ستاراً محكماً من الحصانة ، بما كان اولئك المحدثين والقصاصين يخترعونه له من أحاديث وقصص ينشرونها بين الناس كحقائق ثابتة ــ يقيه عواقب أي انتفاضة يمكن ان تهز ضمير الامة ، لتهز بالتالي عرشه ••• وكان قميناً به ، ان يبرز المشهد الذي كان يمكن ان يعرض على مسرح الاحداث ، حينما يستشهد الامام الحسن (ع) وكل صحبه ؛ على انه تمرد واضح على الحاكم الذي قيض له أن يقوم علىأمور الشريعة الاسلامية •• ومن ثم تمرد على الشريعة نفسها ••!!

وكان قميناً به ان يبرز صورة شوهاء للامام الحسن (ع) وصحبه •• خاصة وان وسائل الاعلام كانت ستصير كلها بيده •• وسيحاول حتماً ان يضرب بيد من حديد على كل من يحاول ان يبرز صورة تختلف عن تلك التي يريد أبرازها وعرضها على الناس •••

ولو تمعنا قليلاً ، بالزوايا التي كان معاوية ينظر من خلالها الى الامور والمقاييس التي وضعها لسلوكه ، لما برزت لنا الا تلك الحقيقة •• حقيقة سعي معاوية لطمس حقيقة الحسن (ع) •••

على انا يمكن ان نلمح هنا سؤالاً يفرض نفسه بقوة وبالحاح ، وهذا

السؤال هو :

أكان مقدراً للامام الحسين (ع) لو انه ثار في هذا العهد ، أن يلمس العصب الحساس من نفس الامة فيغير حالة الانحراف التي آلت اليها ، أم ان معاوية كان كفيلاً بان يشوه تلك الثورة ويبرزها كحركة تمرد ، لا على (أولى الامر) وعلى رأسهم معاوية فحسب ، بل على الاسلام وشرائعه أيضاً ، ويعمل معه مثلما كان مقدراً ان يفعل مع أخيه الحسن (ع) لو كان مقدراً له ان يثور بوجهه ••• ؟

لا شك ان الشطر الثاني من هذا السؤال ، هو الجواب بعينه ، بل لعل معاوية كان سيبرز عمل الحسين (ع) بصورة أشد تشويهاً من الصورة التي كان يمكن ان يبرز بها عمل الامام الحسن (ع) •••

وهنا يبرز لنا الموقف الصحيح الذي وقفه الامام الحسين تجاه أخيه عليه السلام ، حينما برزت دعوة الصلح مع معاوية ؛ فان الحسين (الثائر) كان يدرك حتماً ان مجال ثورته لم يكن صالحاً على الاطلاق في ذلك الوقت، وكان يـدرك أكثر من غيره ، لاندماجه بالاحداث وممارسته اياها ممارسة فعلية كأخيه الحسن (ع) ، أن الوقت غير ملائم للقيام بأي عمل من شأنه بالتالي ان يفضي الى القضاء حتى على الاسلام نفسه ••• ومن خلال شبهة معينة يمكن ان نصل الى تلمس حقيقة مهمة أخرى وهي :

ان الامام الحسين (ع) لو كانت به دفعة ، او انه كان شديد الغرور أو الثقة بنسبه القريب مع رسول الله (ص) وبالحصانة التي يمكن ان يتمتع بها من خلال تلك العلاقة وذلك النسب [٢٦] لكانت دفعته أحرى به ان تدفعه

---

(٢٦) جاء في تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان قوله في ص ١٢٨ « انه ـ اي الحسين ـ كان مبالغاً في اتكاله على الحصانة التي كان يتمتع بها بوصفه حفيد الرسول •••• »

لكي يطلب من أخيه الحسن (ع) ان يقوم ويثور بوجه مناوئيه حتى وان استشهد هو ومن معه ..

وعلى العكس ، أبرز لنا موقفه حينذاك انه كان كأخيه الحسن (ع) يتمتع بحاسة مرهفة ، توقت الاحداث وتترقب نتائج معينة لها ، وابرز لنا أيضاً مدى القابلية التي كانت لديهما لتوجيه تلك الاحداث وجهات تتفق ومصلحة الاسلام ... وكان شأنهما في ذلك شأن رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) من قبل ....

***

الفصل الرابع

الاوضاع الاجتماعية

لا شك ان علماء الاجتماع الآن ، باعطائهم التفسيرات المتعددة عن عمليات التفاعل الاجتماعي باشكالها المختلفة ، السلبية منها او الايجابية ، يعتمدون الى درجة كبيرة على مالاحظه اسلافهم (كمؤرخين) من حالات معينة للمجتمع أدت اما الى تخلفه وتفككه او الى تقدمه وتماسكه ، ويعتمدون كذلك على الامور الطبيعية او المصطنعة التي أدت دورها كعوامل فعالة في مدى التصاق البنيات الاجتماعية ؛ بالاضافة الى ما يلاحظونه من أمور كثيرة تحدث في مجتمعهم الذي يعيشون فيه والمجتمعات التي يعاصرونها ، ورؤيتهم مختلف مظاهر الحياة ، والانماط السلوكية التي تعيشها هذه المجتمعات ...

ونستطيع ان نؤكد على هذه الحقيقة ، بذكر حقيقتين أخريين مهمتين : —

١ — ان العالم الاجتماعي ملزم بحكم وظيفته ان يعتمد على الحوادث التاريخية التي حدثت في أزمنة مختلفة ، لكي يخرج منها بنظرياته الاجتماعية، سواء تلك النظريات التي تحاول ان تشير الى الطريق الذي سارت عليه مختلف الحضارات والمجتمعات المتباينة ، او تلك التي تحاول ان تبرز وتبين عوامل التفاعل الاجتماعي ، من قرابة ودين واسلوب معيشة او منفعة اقتصادية ... وهو — أي العالم الاجتماعي — يضفي بحكم هذه العملية ، أهمية خاصة على علم التاريخ ، بالنسبة للفائدة التي يجنيها علم الاجتماع منه ؛ كما يضفي في نفس الوقت أهمية على علم الاجتماع بالنسبة لما يستفيده منه علم التاريخ أيضاً ؛ لان اعتماد علم الاجتماع على الوقائع والاحداث التي تحدث في الوقت الذي يعيش فيه العالم الاجتماعي ويعاصره ، لا يشكل مادة كافية له ، لكي يحكم على مدى العلاقات القائمة في مجتمع ما ، وعلى نوعية تلك العلاقات ، بالنسبة الى علاقات الاوضاع الاجتماعية السابقة مثلاً .. وعلى ما سيصير اليه المجتمع في المستقبل مثلاً . فللعالم الاجتماعي من المراجع

والمصادر التاريخية المتعددة ، مادة مهمة ، يرجع اليها في استنطاق الحوادث ، وتكوين فكرة معينة عن العوامل الاجتماعية التي لعبت دورها فيما مضى ، والتي يمكن ان تلعب دوراً معيناً في المستقبل .

٢ — ان علم الاجتماع لم يكن علماً قائماً بذاته ، الى ما قبل قرن من الزمن تقريبا ، ويعتبر آخر العلوم الاجتماعية ظهوراً .. وان العالم الاجتماعي ملزم كذلك ان يتبنى النهج التاريخي في التحليل واصدار الاحكام المختلفة ، فيكون موقفه ايجابياً تجاه أي حدث من الاحداث ويكون موقف الناقد المحايد لا موقف المنفعل المتحيز ..

ومن هاتين النقطتين ، سنحاول ان نجد منطلقاً نستطيع من خلاله ، تحديد الاطار اللازم لهذا الفصل من الكتاب ... وهذا المنطلق ، هو استنطاق الحوادث التاريخية المختلفة التي حدثت في الفترة التي يعنينا البحث بشأنها ، والاستعانة بهذا الصدد بمختلف الكتب التاريخية التي وصلت الينا ، والتي يمكن ان تعيننا على وصف الحياة الاجتماعية السائدة في تلك الفترة ... بحيث نقف في بحثنا هذا موقفاً ايجابياً تجاه أي حدثٍ حدثَ في ذلك الحين، ملتزمين جانب الحياد والموضوعية في كل حكم نصدره ..

***

ولعل في عملية التفاعل الاجتماعي المعقدة ، التي لابد منها ، لربط اعضاء المجتمع بشكل ما ، تأثيراً في توجيه سلوك هؤلاء الاعضاء توجيهاً معيناً . فمن خلال اعداد الفرد ، ليأخذ دوره كعامل اجتماعي مهم ، فان هنالك دوافع عدة تتنازعه ، منها فطرية ومنها مكتسبة وهذه الدوافع تخضع جميعها لعاملي التربية والتوجيه اللذين لابد منهما لاستكمال مقومات ايجاد الشخص (الصالح) ... ويصبح الانسان عند عزله اجتماعيا فاقدا القدرة على أن

يحتفظ ، بما يحتفظ به الانسان (الفاعل او المنفعل) اجتماعيا . على أن الانسان مهيء بطبيعته نفسياً وغريزياً لكي يأخذ دوره في عملية التفاعل الاجتماعي بأقصر وقت لازم ، يكون في الامكان خلاله ان يتدرب على ما كان ينبغي له تعلمه في فترة طويلة ...

ولعل التفاعل الاجتماعي هو تأثر مجموعة الافراد الذين يؤلفون المجتمع بكافة ظروف الانفعالات والخبرات التي يمرون بها بما تشتمل عليه من حب وكره وحب للسيطرة وسعي في سبيل النفع العام وحسد ومحاولة لجلب منافع للآخرين ... وقد يكون هذا التفاعل من جانب واحد كتفاعل الفرد مع مجتمعه وانفعاله به هو فقط من دون ان ينفعل المجتمع به ، وقد يكون التفاعل متبادلاً بين الفرد والمجتمع ؛ فهذه العوامل تنمو في نفسية المجتمع ككل او نفسية بعض الاعضاء الذين يضمهم هذا المجتمع متى ما وجدت الاسباب الموجبة ذلك ...

ولا شك ان العوامل التي تدفع الانسان الى الانفعال اجتماعياً ، من عوامل فطرية غريزية او عوامل تقوم على رغبة معينة او حاجة خاصة ، هي التي تحدد نوعية العلاقات الاجتماعية للمجتمع ...

ولا شك اننا من خلال استقراء حوادث التاريخ المختلفة ، نستطيع ان ندرس بشيء من السهولة الحالات الاجتماعية التي كانت سائدة خلال الفترة التي اعقبت ظهور الاسلام الى حكم يزيد بن معاوية ، ونستطيع ان نتبين مدى ونوعية التفاعل الاجتماعي الذي عاشته الامة الاسلامية خلال تلك الفترة.

ويقتضينا ذلك ان نلم الماماً يسيرة بحالة المجتمع قبل ظهور الاسلام ، باعتبار ان الاعضاء الذين كانوا يؤلفون مجتمع ما قبل الاسلام هم انفسهم — وان تغيروا قليلاً — الذين ألفوا مجتمع ما بعد الاسلام ؛ وان تفاعلهم ككل

كان قبل كل شيء بالاسلام الذي جاءهـم به محمد (ص) من عند الله — سبحانه — .

ونستطيع من خلال دراسة بسيطة ان نلمس مدى ذلك التفاعل الذي حدث بوجود الاسلام ومدى اختلافه عند الافراد ...

وأظنني قد بينت في الفصل السابق ، بعض ما آمنت به العقلية الجاهلية، والذي كان نتاج ما درج عليه الجاهليون من عادات واخلاق وطرائق للسلوك ساروا عليها وانتهجوها .

***

ويجب ان يكون معلوماً لدينا ان المجتمع حينما يتبدل من حالة الى أخرى مغايرة للسابقة ، فان ذلك يستنفذ وقتاً ليس بالقصير .. ومن هنا يتضح لنـا أن الرسول القائد (ص) حينمـا جاء بالاسلام من عند الله — سبحانه — فانه لم يأت مباشرة بالتشريعات والانظمة التي ينبغي ان يلتزم بها الناس كافة ، بل جاء قبل ذلك بقواعد ايمانية حاول ان يمركزها في ذهنيات الأفراد لتكون اساساً لتقبل التشريعات والانظمة الاسلامية والعمل بها ...

ورغم ان ذلـك الاسلوب للدعوة الى الاسلام كـان بايحاء من الله — سبحانه — الا اننا نلمس من أقوال الرسول (ص) ومراحل عمله في سبيل الدعوة الاسلامية انه كان متأكداً تمام التأكـد من ان الافكار والمعتقدات الجاهلية لا يمكن حسرها عن اذهان جميع الناس دفعة واحدة .. واذا تم ذلك — جدلاً — فانه لا يمكن حسرها عن اذهانهم تماماً ...

ومن خلال هذه النظرة الواعية المتفحصة التي نظر بها الرسول (ص) للأمور ، نستطيع ان نتبين بعض الحقائق التي مكنت على حرف المجتمع الاسلامي بعد ذلك . وأولى تلك الحقائق هي : — ان المجتمع الاسلامي بعد

وفاة الرسول (ص) ، لم يكن خالياً من الشوائب الجاهلية ، وان الافكار الجاهلية القديمة وعلى رأسها تلك التي تدعو للعصبية القبلية ، قد برزت باشكال ما كان ينبغي لها فيها ان تبرز بعصر جاهلي مظلم ناهيك عن عصر اسلامي متنور ؛ فكان الالتحام بين شخصية الفرد وشخصية القبيلة ، الذي كان اساس البناء الاجتماعي في الجاهلية ، قد برز بعد وفاة الرسول (ص) بصورة شديدة ، بالرغم من انه (ص) أراد ان يقيم أسس هذا الالتحام على اساس رابطة الفرد والمجتمع مع الاسلام لا غير ...

ولعل هذه الناحية — ناحية العصبية القبلية — قد استغلت لاغراض سياسية معينة بعد وفاة الرسول (ص) ، لجعل المجتمع يفكر بها ثانيــة ويعتمدها أساسا لتركيبه الاجتماعي وعلاقاته القائمة .

وهنا يمكن ان نؤكد الحقيقة التالية وهي : ان نوعية العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الاسلام والتي كانت مبنية على العصبية القبلية وغيرها ، كانت من العوامل التي أدت الى تأخر المجتمع الجاهلي نوعاً ما عن المجتمعات التي كانت قائمة في ذلك العهد ... ومعنى تمسك المجتمع الاسلامي بنفس تلك الارتباطات والعلاقات هو انه كان يسير نحو التأخر بعد ان كاد الاسلام ان يدفع به الى ذرى التقدم ..

وهنا قد يقول قائل : ان الحالة التي وصل اليها المجتمع بعد الفترة التي اعقبت وفاة الرسول (ص) كانت حالة تبدل أجتماعي لابد منها ، والمفروض في عمليات التفاعل الاجتماعي ان تمر بمراحل كتلك التي مر بها ... وللجواب على هذا السؤال نقول :

ان عمليات التبدل الاجتماعي ينبغي ان تسير في معظم الاحتمالات نحو الاحسن لا الأسوأ ، الا اذا كانت هنالك ظروف قاهرة سيئة تحول دون ذلك

فبينما كانت الظروف التي تحيط بالمجتمع الاسلامي ، وفي مقدمتها وجود الرابطة الاسلامية المدعمة تقتضي ان يتقدم الاسلام نحو الافضل في علاقاته وتكوينه ، رأينا ذلك المجتمع يتقهقر ويتأخر والسبب في ذلك يعود الى اعضاء المجتمع انفسهم او بعضهم .

غير انا يجب ان ننحي باللائمة على اولئك الذين استغلوا وجود بعض جذور الجاهلية في نفوس بعض ابناء ذلك الجيل ، وجعلوه باستغلال تلك الجذور يعيش نفس العقلية الاولى التي كان يعيشها من قبل ...

***

انــا لا نريد ان نخوض في الاسباب التي عملت على قلب المجتمـع الاسلامي ، وجعلته بما ظهر له من واجهات يكاد ان يكون مجتمعاً لا اسلاميا ، لنر : ما هي الحالة التي كان عليها المجتمع الاسلامي في عهد يزيد ؟ وهل ان مقومات الدولة الاسلامية كانت متوفرة لنسمي تلك الدولة دولة اسلامية ؟

هل كان الشعب مؤمناً بالاسلام ايماناً كبيراً عارفا أياه معرفة حقيقية ؟ وهل كان الحاكم الذي قدر له ان يكون على رأس ذلك الشعب فيوجهه كيف ما شاء حاكماً مسلماً ؟ أو ان عوامل الانحراف كانت تعمل عملها في أبعاد الشعب بمختلف الوسائل عن اسلامه .. سواء تلك التي بحرف الحقائق فتلك الاسباب قد يطول شرحها عند التعرض لها ، الا اننا سنطوي الفترة الزمنية الواقعة بين وفاة الرسول (ص) الى حكم معاوية ومن بعده يزيد وتشويهها ، او تلك التي تتعلق بايجاد نظام طبقي يتألف من طبقات ارستوقراطية مترفة ، هي بطانة الحكم والموجهة لاموره بصور مباشرة او غير مباشرة وطبقات معدمة فقيرة لا تستطيع ان ترفع صوتها حتى لطلب الخبز او تطبيق أقل قدر من مبادىء الاسلام .... او بأثارة النزعات الجاهلية القديمة او غيرها ؟

ان الحالة التي وصل اليها المجتمع الاسلامي كانت متأخرة ومتردية الى درجة خطيرة ، اصبحت بشكل لا يكفي معه اي اصلاح بسيط او صيحة حق واحدة لجعله يسير في الطريق الصحيحة •• بل ان ذلك المجتمع اصبح بشكل احتاج معه ان يقلب قلباً جذرياً يعود بعده الى التمسك بالاسلام الذي جاء به محمد (ص) من عند الله ، لا الاسلام الذي جاء به غيره ؛ بالاسلام الصحيح ، لا الاسلام المزيف ••

***

ان علينا ، لكي ندرك صلاحيـــة المجتمع ، كمجتمع اسلامي بالمعنى المعروف ، وبالشكل المطلوب ان ننظر الى النقاط التالية : ـ

ـ وضع الحاكم الاسلامي وسلوكه •

٢ ـ اوضاع الفئة التي تحيط بهذا الحاكم ، وتشكل طبقة المستشارين والوزراء •

٣ ـ طبيعة التركيب الاجتماعي الموجود ونوعية العلاقات الاجتماعية السائدة •

٤ ـ نوعية العلاقات التي تربط الناس ـ الشعب ـ بالحاكم والفئة الحاكمة •••

٥ ـ نوعية العقلية التي يحملها الحاكم والفئة الحاكمة كحاكم مسلم وفئة حاكمة مسلمة ، وكذلك نوعية العقلية التي يحملها الشعب ، كشعب مسلم •••

ولعلنا لو أردنا ان ننطلق من هذه الزوايا ، لنلقي الضوء على اوضاع الفترة الزمنية التي انهت فترة معاوية ، واستمرت مع حكم يزيد ، لتكونت لدينا صورة واضحة المعالم لنوعية الارتباطات الاجتماعية والنفسية التي كانت

سائدة حينذاك ، ولاستطعنا ان ندرك عوامل السقوط التي آلت اليها تلك الفترة ، كفترة يجب ان يكون الاسلام فيها هو الحاكم والمسيطر ، ولاستطعنا ان نميز مراحل الانطلاق التي دعت الامام الحسين (ع) ليقوم بما قام به بعد ذلك ، وندرك أهمية تلك المراحل والطرق التي اتبعها لمعالجة ذلك الوضع المتأزم ...

وسنحاول ان نتناول النقاط السابقة التي ذكرناها قبل قليل بشيء من التفصيل لتكتمل الصورة التي أردنا رسمها ...

***

١ — يزيد ، الحاكم الاسلامي .. !!

ان يزيد لم يكن يتمتع بتلك الشخصية المزدوجة التي كان والده يملكها، ويحاول أبراز الجانب المشرق منها ، بل كان ينطلق ، وحتى خلال سني حكمه، على خط السير التي اختطها لنفسه ، ضارباً عرض الحائط كل ما من شأنه ان يكشفه للرأي العام الاسلامي على حقيقته ، ويظهره بالشكل الذي كان عليه ، والذي لم يكن يؤهله لكي يكون ابسط مسلم ملتزم بأقل التكاليف الشرعية ، فكيف به ، وهو يقوم بشأن الامة الاسلامية كلها ويوجهها كما يريد .. ؟

ان النصوص التأريخية التي وصلت الينا عن تلك الفترة تشير لنا اشارات قاطعة تثبت ان مؤهلات يزيد لم تكن تتيح له — فيما لو لم يكن ابن معاوية — ان يقوم حتى على شؤون نفسه ليتعهدها بالرعاية والاهتمام الواجبين .. ومن تلك النصوص ، الرسالة التي وجهها والده اليه ، بعد ما علمه من سلوكه الفاضح وسيرته المنحرفة .. وسأحاول ان اثبت الرسالة هنا كاملة لكي نستطيع ان نستشف من خلالها حقيقة يزيد ووضعه ، وحقائق اخرى يهمنا

الخوض والكلام بشأنها في هذا البحث ...

وسيتبين لنا ، بعد مطالعتنا لها ، أن الذي حمل معاوية على كتابة هذه الرسالة ، هو شيوع أمر انحراف يزيد الفاضح عن الخط الاسلامي ، وابتعاده عن كل مبدء انساني ، حتى يصل الامر الى ان يعلم به والده ، وهو المحاط بحاشية لا تريد الا ان تزين له اعمال يزيد (الجليلة) ، وتظهره له كولي للعهد لائق لولايته ولخلافة المسلمين .. !! مدركين من خلال نظرة نفسية خاصة ولع الاب ــ أي أب ــ بسماع المدح والاطراء في ابنه .. ولا ريب بان معاوية يريد ابنه ان يسير على خط سيره ، فلا يظهر الجانب المعتم من شخصيته ، بل يحاول دائماً ان يتسلح بالجانب الآخر ليظهر بمظهر (اسلامي)، جذاب ، كما كان شأن معاويه دائماً .وبرغم محاولة سلطة الوزراء والمستشارين تغطية انحراف يزيد وخروجه الفاضح عن المبادىء الاسلامية والانسانية ، وابراز ذلك الانحراف بصورة أقل تشويهاً ، نرى ان أمره يصل بصورة كاملة الى سمع والده [1] الذي يريده ان يتستر لكي يبدو امام الناس كشخص لائق (لأمرة المؤمنين) ... !!!

ولعل معاوية رأى بوادر غضبة تلوح بين صفوف الناس مهددة بنسف حكمه ، وحكم ابنه ، الذي أراده ان يكون ولياً للعهد من بعده ، والذي تدعو تصرفاته الى اذكاء نار تلك الغضبة ... وليظهر نفسه من جهة أخرى كمصلح ديني يخاف الله في أمر دينه ودنياه ، وأمر نفسه وامته ...

(١) وقد عبر عن هذه المعرفة بحقيقة يزيد ، الاحنف بن قيس ، فقد قال لمعاوية في الجلسة التي هيأ فيها معاوية لبيعة يزيد حينما سأله عن رأيه فيه « ... نخافكم ان صدقناكم ونخاف الله ان كذبنا ، وانت اعلم بيزيد في ليله ونهاره . » ابن الاثير ــ الكامل ٣ ــ ٢٤٩ ــ ٢٥١ .

فقد (كتب معاوية بن أبي سفيان في خلافته الى ابنه يزيد ، وقد بلغه مقارفته اللذات وانهماكه على الشهوات ، وهو :

« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين الى يزيد بن أمير المؤمنين الى يزيد بن معاوية . أما بعد ، فقد أدت ألسنة التصريح الى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك ، وباعد الرجاء منك اذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت اليك آمال الراغبين ، وهمم المتنافسين ، وشحت بك فتيان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك الا على الجرة المهوعة [٢] ، والكظ [٣] الجشء [٤] . اقتحمت البوائق [٥] ، وانقدت للمعاير [٦] ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر ، فليتك يزيد اذ كنت لم تكن . سررت يافعاً ناشئاً ! وأثكلت كهلاً ضالعا ، فواحزناه عليك يزيد ! ويا حر صدر المثكل بك ! ما أشمت فتيان بني هاشم ! وأذل فتيان بني عبد شمس : عند تفاوض [٧] المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ، ورتق ما فتقت ؟ هيهات خمشت [٨] الدربة [٩] وجه التصبر بك ، وأبت الجناية

---

(٢) التهوع : القيئ والمهوعة : المقيئة .

(٣) الكظ : ما يزدحم عليه الطعام ويكثر فيه .

(٤) الجشء : ما يخرج الجشأة وهي ريح يخرج من الفم مع صوت عند الشبع .

(٥) البوائق : الشرور .

(٦) المعاير : المعايب .

(٧) تفاوض : ذكر .

(٨) خمشت : خدشت .

(٩) الدربه : الجرأة على كل أمر .

الا تحدرا على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أربح فائدة نالوها ، وفرصة اتنهزوها ! اتنبه يزيد للفظة ، وشاور الفكرة ، ولا تكن الى سمعك أسرع من معناها الى عقلك . واعلم أن الذي وطاك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان ، مما حسن عندك قبحه ، واحلولى عندك مره ، أمرشركك فيه السواد وناصكه الاعبد ، لا لأثرة تدعيها أوجبتها لك لك الا مرة ، واضعت بها من قدرك ، فأمكنت بها من نفسك ، فكأنك شانيء [١٠] نفسك ، فمن لهذا كله ؟.

اعلم يا يزيد أنك طريد الموت واسير الحياة ، بلغني أنك اتخذت المصانع [١١] والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : « أتبنون بكل ريع [١٢] آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون [١٣] واجهرت الفاحشة حتى أتخذت سريرتها عندك جهرا .

اعلم يا يزيد ان أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة ، والائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى : ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهو من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، واظهار العورة ، واباحة السر . فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعقد على فعلك [١٤] . فما خير لذة تعقب الندم وتعض الكرم ؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك ، لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة . فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم

---

(١٠) شانيء : مبغض مع عداوة .

(١١) مصانع : قصور ومدائن .

(١٢) ريع : المرتفع من الارض .

(١٣) الشعراء ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٤) تعقد على فعلك : تصر عليه وتتمادى فيه .

عليه ذهنك ترشد ان شاء الله تعالى • وليبلغ أمير المؤمنين ما يرد شاردا من نومه ، فقد أصبح نصب الاعتزال من كل مؤانس ، ودرأة [١٥] الالسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن » [١٦] •

ان الرسالة التي قرأناها قبل قليل ، يمكن ان تقسم الى ثلاثة اقسام تبعا لما يراد ان يتمثل منها في الاذهان :

آ ــ القسم الأول : توجيه اللوم والتقريع الشـديدين ليزيد جراء تصرفاته السيئة وخروجه الفاضح عن الطريق الاسلامية الصحيحة •

ب ــ القسم الثاني : التألم شماتة فتيان (هاشم) وذلة بني (عبدشمس) وكلهم من (قريش) •

جـ ــ القسم الثالث : التوقع بان يرجع يزيد عن تصرفاته تلك فيعود (سويا) كما يريد أبوه •

انا لو نظرنا الى النصوص التي وردت في الرسالة المارة الذكر لرأينا بأنها تعكس لنا النظرة الالتوائية التي عمد اليها معاوية لصرف الانظار عن افعال ولده ، فهو يريد برسالته أنه يوجه اللوم (العنيفه) والنقد (الشديد) الى يزيد ليردعه عما هو فيه ويرجعه عنه ••• مع ان بامكانــه ان يستدعيه ويكلمه مشافهة حول تصرفاته ، ويفرض عليه بالقوة سيرة قويمة ويضرب عليه ستارا حديديا من رقابة صارمة لا تتيح له بان يتأثر بأي انسان سوء يعبث واياه كما يريد •••

اما ما نلمحه من استعمال عبارات التوجع والتألم من شـماتة فتيان (هاشم) وذلة فتيان بني (عبد شمس) ، فاننا نصل من خلالها الى تلمس

(١٥) درأة : لعله يعني بها درئية وهي الحلقة التي يتعلم عليها الطعن •

(١٦) صبح الاعشى ٦ ــ ٣٨٧ ــ ٣٨٨ •

معنى آخر ... اننا يمكن ان نلمس : أنه لولا شماتة فتيان هاشم ، لما كان لعمل يزيد أي معنى ، سواء أكان سيئا أم حسنا ... ولو أن هؤلاء الفتيان ـ فتيان هاشم ـ ساروا كما يسير يزيد ، وكان لهم نفس الضرب من السلوك الذي سلكه .. او انهم على الاقل قد تغاضوا عن الشماتة التي ذكرها معاوية برسالته ، لما كان هنالك أي الم في نفسه ..

ثم .. لماذا يؤكد معاوية على فتيان هاشم وبني عبد شمس ؟ اليسوا هم كبقية المسلمين ؟ لم يقل له ما اشمت ابناء العرب أو : ما اشمت المسلمين ؟ من هي هذه الطبقة التي يخشى معاوية نقدها ؟ ومن هي الطبقة الثانية التي يؤلم معاوية ذلها ويرها ان تكون على رأس الطبقات ؟ أهي بداية لارستقراطية جديدة يمهد فيها لهذه الطبقة كي تكون عليها .

اما ما توقعه من رجوع يزيد عن تصرفاته ، فهو توقع في غير محله ؛ لانه اعترف بذلك بنفسه حيث قال بنفس الرسالة « ... فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات خمشت الدربة وجه التصبر بك ... ». أترى من يقول هيهات يأمل ان يكون غيرها ؟ .

ومهما يكن من أمر الرسالة السابقة ، ومن أمر صحتها او عدمه ، فاننا يمكن ان نلمس من خلال مستندات تاريخية كثيرة ، مدى التمادي الذي كان عليه يزيد قبل تسنمه الحكم وخلال تسنمه اياه ؛ فان الحقائق تجمع كلها بانه كان « ... صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شراب ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فاقبل على ساقيه فقال :

اسقني شربة تروي مشاشي ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والامانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنيين فغنوا به ... » [١٧] .

« وليزيد وغيره أخبار عجيبة ومثالب كثيرة : من شرب الخمر ، ... وهدم البيت واحراقه ، وسفك الدماء ، والفسق والفجور ، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه ، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله ... » [١٨] وهو بالاضافة الى ذلك « يزيد الخمور ، ويزيد القرود ، ويزيد الفهود ، الفاسق في بطنه ، المأبون في فرجه ... » [١٩] .

ولنسمع يزيد يعترف ببعض عيوبه بنفسه حينما افضى الامر اليه ، فأنه « دخل منزله ، فلم يظهر للناس ثلاثا ، فاجتمع ببابه أشراف العرب ، ووفود البلدان وأمراء الاجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالامر ، فلما كان في اليوم الرابع خرج أشعث أغبر ، فصعد المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ان معاوية كان حبلا من حبال الله ، مده الله ما شاء ، ان يمده ثم قطعه حين شاء ان يقطعه ، وكان دون من كان قبله وخير من بعده ، ان يغفر الله له فهو أهله ، وان يعذبه فبذنبه ، وقد وليت الامر بعده ، ولست اعتذر عن جهل ، ولا اشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم فان الله لو أراد شيئا كان ، اذكروا الله واستغفروه ... » [٢٠] .

فهو هنا يعترف بجهله المطلق ... كما أنه يصر — بنفس الوقت — على الاستمرار بذلك الجهل وعدم الاشتغال بطلب العلم ، وان على الناس ان يقبلوه على علاته ، لان ذلك هو ارادة الله ، الذي اذا أراد أن يكون يزيد

---

(١٧) المسعودي : ٣ — ٧٧ .

(١٨) المصدر السابق ٣ — ٨١ .

(١٩) البيان والتبيين ٢ — ٢٧٦ « من خطبة لابي حمزة الخارجي » .

(٢٠) المسعودي — مروج الذهب — ٣ — ٧٥ .

أميرا ، أرضوا ام لم يرضوا ••• وان عليهم ان يذكروه كانه مشيئة الله ، ما داموا يذكرون الله نفسه •••

ان ذلك ما أراد يزيد أن يدخله الى أذهان سامعيه ، لقد كان يريد ان يوحي اليهم بأنه كان كالقدر المحتم عليهم ، وان مجيئه الى الحكم امرا راده الله و مفر منه •• ولعله في خطبته هذه ، قد سلك بعض طرق ابيه واتبع بعض اساليبه ، من خلال محاولته السيطرة على شؤون الناس وتسييرهم كما يشاء ويهوى ••• • •

ويبدو ان موقف الاستسلام للامر الواقع ، الذي يريد يزيد ان يفرضه على الناس ، كان مستمدا من مواقف ابيه التي كانت متخذة ذلك الطابع فيما مضى ••• ومع علم الاب بأعمال ولده فأنه كان يصر على ان يكون هذا الاخير ولي عهده والخليفة من بعده ، وكان هذا بدوره يصر على ان يواجه مسؤوليات الحكم وهو على ما هو عليه من سيرة واضحة وشخصية منهارة • لقد (كتب معاوية الى زياد وهو بالبصرة ان المغيرة دعا أهل الكوفة الى البيعة ليزيد بولاية العهد بعدي ، وليس المغيرة باحق بابن اخيك منك ، فاذا وصل اليك كتابي فأدع الناس قبلك الى مثل ما دعاهم اليه المغيرة ، وخذ عليهم البيعة ليزيد • فلما بلغ زياداً وقرأ الكتاب ، دعا برجل من اصحابه يثق بفضله وفهمه فقال اني أريد ان أئتمنك على ما لم أئتمن عليه بطون الصحائف • ايت معاوية وقل له يا أمير المؤمنين ان كتابك ورد عليّ بكذا فما يقول الناس اذا دعوناهم الى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبغ ويدمن الشراب ويمسي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، ولكن تأمره يتخلق باخلاق هؤلاء حولاً او حولين فعسانا أن نموه على الناس ، فلما

صار الرسول الى معاوية وأدى اليه الرسالة قال : ويلي على بن عبيد ، لقد بلغني ان الحادي حدا له ان الامير بعدي زياد ، والله لأردنه الى أمه سمية والى أبيه عبيد . » (٢١) ونستطيع ان نستخلص من هذه الحادثة ثلاثة نقاط مهمة وهي :

أ — ان يزيد كان كما عهده والده ، وكما عهد من قبل جميع الناس قد انحرف انحرافاً بيناً عن الخط الاسلامي .

ب — ان معاوية لم يستنكر قول زياد عن يزيد من انه كان « يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبغ ويدمن الشراب ويمسي على الدفوف » ، بل سبق الى ظنه طمع زياد بالخلافة ، فجابه رسوله بتلك الكلمات الخشنة التي يمكن ان نستدل منها :

١ — عدم اقتناع معاوية بحقيقة النسب الذي الحقه بزياد مؤخراً .

٢ — اصراره على أخذ البيعة ليزيد كولي للعهد فوراً وبدون تأخير حتى ولو كان حولاً او حولين .

ج — ان رغبة معاوية بأن يكون يزيد خليفته ، لم يخفف منها وضع يزيد الحقيقي المنحرف ، وقد أراد ليزيد ان يكون خليفته رغم ما هو عليه من انحراف وبدون ان تكون هنالك أي محاولة من جانب الوالد لستر وتغطية بعض جوانب سلوك الولد ...

ولعل رسالة عبد الله بن عباس ، تلقي ضوءاً آخراً على مدى الانحراف الذي وصل اليه يزيد ؛ فقد كتب اليه أثر تلقيه رسالة منه يشكره ويمدحه لعدم مبايعته ابن الزبير قائلا ... « ... فانك حلف نسوة ، صاحب

---

(٢١) اليعقوبي ٢ — ١٠٦ ويراجع كذلك الطبري ٦ — ١٦٩ حيث ذكر قصة مقاربة لهذه .

ملاهي ... » [٢٢] ، وذلك ضمن رسالة عدد فيها بعضاً من اعماله .

وقد نجد ان من الطريف حقاً ، بعد ان قرأنا وصف الوالد لولده — يزيد — وقرأنا وصف هذا الولد انفسه ، أن نقرأ وصف ابن هذا الولد له بعد ذلك ؛ فقد قال معاوية بن يزيد من جملة خطبة له يصف أحوال من حكم من بني أمية ، وكان هو في مركز الحكم انذاك .. « ... ثم قلد ابي ، وكان غير خليق للخير ، فركب هواه واستحسن خطأه وعظم رجاؤه فأخلفه الامل وقصر عنه الاجل فقلت منعته ، وانقطعت مدته ، وصار في حفرته رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه » [٢٣] .

ثم قال :

« ان اعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه ، وقد قتل عترة الرسول (ص) واباح الحرمة وحرق الكعبة ... » [٢٤]

ان شخصية يزيد ، لا يمكن اعتبارها شخصية اسلامية بأي حال من الأحوال ، بل ولا يمكن اعتبارها حتى شخصية انسانية لها مقومات الانسان القويم ؛ فهو قد كان مجانباً الاسلام في كل مصدر صدر منه — كما تبين لنا — كما انه في نفس الوقت كان مجانباً الانسانية بما صدر منه من اعمال يمجها الذوق وتنفر منها الاسماع ... ان وجود يزيد كخليفة للمسلمين كان يشكل بحد ذاته تهديداً خطيراً للاسلام في كل لحظة ، كما يشكل حلقة مهمة من الحلقات التي حاولت ان تلتف حوله لتخنق دعوته .. وان من يقرأ المزيد عن هذه الشخصية المنهارة ، ليشعر بالأسى من كون مثل هذه الرجل محتلاً مقام

---

(٢٢) اليعقوبي : ٢ — ٢٢٢ .

(٢٣) المصدر السابق : ٢ — ٢٢٦ .

(٢٤) المصدر السابق : ٢ — ٢٢٧ .

رسول الله (ص) ومتقلداً أمور امة أريد لها ان تكون امة رائدة باسلامها ومسلميها ..

اننا لا يمكن ان نجد صفة واحدة طيبة ، او عمل صالح واحد يمكن أن ينسب الى هذا الرجل ، اللهم الا ما قاله عنه بروكلمان ، فقد قال هذا عنه « صحيح انه انصرف ، حتى في عهد خلافته ، الى الخمر والموسيقى واللهو . بأكثر مما انصرف الى شؤون الدولة ، وانه قد وضع حداً للحرب البيزنطية التي لم يشارك فيها ، وهو أمير ، الا في تردد وعلى كره ، وصحيح أيضاً ان الروايات النصرانية تشيد بحبه الفائق للوصف والشراب . ولكنه مع ذلك استطاع ان يحدث خلال حكمه القصير ، وفي شكل لا يخلو من البراعة ، اصلاحاً في الادارة المالية ، وان يوجه اهتماماً الى ري الغوطة ، واحة دمشق ... » (٢٥)

ان العملين القيمين — بزعم بروكلمان — اللذين قام بهما يزيد وهما . اصلاح الادارة المالية والاهتمام بري الغوطة ، ليعتبران بحق من الاعمال المجيدة ، التي تتصدر الاهمية قبل غيرها من الاعمال .. ! والتي تستحق ان يمجدها مؤرخ واسع الاطلاع بتاريخ الشعوب مثل بروكلمان ، ولا بأس بأن يرافق هذين العملين المجيدين اي عمل آخر شائن او غير ... !!!

ان المشاكل التي كان يعاني منها المسلمون ، لم تكن تشكل ري الغوطة وحدها ، بل كانت اعمق من ذلك بكثير . وربما كان اهتمام يزيد بري الغوطة، واحة دمشق ، يشكل بحد ذاته جانباً من جوانب الحظر الكثيرة التي تعرض لها المسلمون . ويمكننا ان نعتبر اهتمامه بالغوطة كان بمثابة انشائه حانه من حانات الخمور .. لان يزيد أراد للغواطة ان تعكس الجواب التي يمكن

---

(٢٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ١٢٩ — ١٣٠ .

ان تبرزها الحانه ، فهو قد اتخذها مكاناً للهوه وقصفه ومباذله ...

اما اصلاح الادارة المالية المزعوم الذي قام به يزيد ، والذي يريد المؤرخ ان نسلم به على علاته ، ولا نشكك بصحته أو عدمها ، فهو يضطرنا الى أخذه بوجهتي نظر مختلفتين لنثبت بطلانه وعدم جدواه .

الوجهة الاولى هي وجهة النظر الاسلامية ، والثانية هي وجهة النظر اللااسلامية . وحينما نأخذ الامر من وجهة النظر الاسلامية ، فاننا نرى في هذه الحالة ان يزيد قد عاد بضرر كبير على المسلمين ، مادي ومعنوي ، بما كان يقوم به من اعمال ... واذا أردنا ان نفرض جدلاً انه قد عاد بفائدة مادية ملموسة نتيجة اصلاحاته للادارة المالية ، وان هذه الفائدة كانت قد بلغت مائة مليون دينار مثلاً او اكثر ! أترى لو ان أحداً عرض ذلك الامر على منطلق الاسلام واستعد بان يقدم ذلك المبلغ ، أو دعا بما اكثر منه ، على شرط ان يسمح له بارتكاب ما يشاء من الاعمال والموبقات ، اكان ذلك يقبل منه ؟ ان جواب الاسلام هو الرفض التام ؛ ثم أترى يزيداً قد جاء بقوانين خاصة منه ضبطت له الادارة المالية ؟ أليس للاسلام قوانين مالية جديرة بأن تحل كل مشكلة مالية فيما لو تعهدتها الايدي الامينة ؟

ان الواقع — الذي لا شك فيه — يؤكد لنا بصورة قاطعة لا تقبل الجدل ، الخروج الواضح عن الطريقة الاسلامية في تنظيم خزانة الدولة أو شؤونها المالية ، الذي حدث في زمن يزيد وابيه ... ويؤكد لنا ان الخسارة التي نشأت نتيجة التلاعبات التي صدرت عن ذينك الشخصين كانت خسارة عظيمة ...

واننا لو أردنا ان نأخذ الامر من وجهة نظر لا اسلامية ؛ وجهة نظر لا تأخذ الامر الا من خلال منظار تجاري بحت مثلاً ، لرأينا كذلك ان يزيد

لم يـكن بعمله ليعود بأي حال من الاحوال بأي منفعة على الاسلام او المسلمين •• ولعلنا نستطيع بمعليات بسيطة ان نستنتج مدى الخسارة التي الحقت بالاسلام نتيجة قيامه باعماله تلك ••

ان يزيد ما كان لديه ذلك الاهتمام الكافي او القابلية التي تجعله جديراً بالاهتمام بتنظيم الادارة المالية •• وما كان وقته الذي يستنفذ جله بمباذله ومفاسده ليتيح له أي فرصة يتمكن خلالها من ذلك الاصلاح المزعوم •••

ولا أدري ما الذي يدفع بروكلمان لأن يعتبر ذينـك العملين اللذين نسبهما الى يزيد من الامور التي تجعل أصحابها جديرين بالارتفاع الى مستوى القادة الذين يحق لهم ان يحكموا الامم ويمسكوا زمام الامور •••

٢ ـ حاشية يزيد ، المستشارون والوزراء •

يمكننا ان نلمس مدى صحة ما قاله « المسعودي » في « مروج الذهب» عن حاشية يزيد ، من خلال استقراء بعض الحوادث التاريخية المعينة • لقد أخبرنا هذا الرجل بأنه « قد غلب على اصحابه وعماله ماكان يفعله من الفسوق وفي ايامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، واظهر الناس شرب الشراب •• » (٢٦)

لقد كان حرياً بأولئك الاصحاب والعمال أن يفعلوا ما فعلوه ، وكان حرياً بهم ان يكونوا كسيدهم واميرهم ؛ فان هذا السيد ، وهو على ما هو عليه من سلوك شاذ واخلاق منحرفة ، ما كان ليدع اناساً مستقيمين ، تغاير سيرتهم سيرته ، ان يسيروا أمور الدولة ويديروا شؤون الحكم ، لأن هؤلاء سيختلفون معه حتماً في كيفية ذلك التسيير وتلك الادارة ، وربما يعتبرون وجوده على رأس الحكومة سبباً رئيسياً لفشلها كحكومة اسلامية •

---

(٢٦) مروج الذهب ، المسعودي ٣ ـ ٧٧ •

وقد نستطيع ان نتأكد من انحراف الحاشية الحاكمة عندما نستعرضهم واحداً بعد الآخر ونستعرض قسماً من اعمالهم ٠

لقد كان الغالب على يزيد « حسان بن بحدل الكلبي ، وروح بن زنباع الجذامي ، والنعمان بن بشير ، وعبد الله بن رياح ، وكان على شرطه عبد الله بن عامر الهمداني ، وعلى حرسه سعيد مولى كلب ٠٠ » [٢٧]

ولم يكن هؤلاء وحدهم الذين غلبوا على يزيد او غلب عليهم يزيد ، وانما هناك أيضاً آل أبي سفيان بما فيهم مروان بن الحكم والوليد بن عتبة ابن أبي سفيان الذي ولاه المدينة [٢٨] ، ثم عثمان بن محمد بن أبي سفيان الذي ولاه المدينة بعده الوليد [٢٩] ٠٠ وكان هناك بالاضافة الى هؤلاء عبد لله بن زياد ، نديمه وصاحب سره ، والضحاك بن قيس القرشي ، ومسلم بن عقبة المري ، والحصين بن نمير السكوني ٠٠٠

اننا لو أردنا ان نعدد قائمة الرجال الذين عملوا على تثبت حكم يزيد وعلى تشويه الحكم الاسلامي والتشريعات الاسلامية بما أبرزوه من صور مشوهة لها ، لرأينا ان ذلك العمل يشكل بحد ذاته بحثا واسعا قد لا تستطيع ان تستوعبه هذه الدراسة ٠

ولو أردنا ان نعرف الدوافع التي حملت هؤلاء لأن يعملوا ما عملوه لرأفنا انها كانت كثيرة ومتعددة ٠٠ وقد كان عامل المشاركة بالانحراف عن الاسلام ، عاملا رئيسياً ذا اثر فعال في ايجاد رابطة واحدة مشتركة اساس وجودها ، السعي لحرف المجتمع الاسلامي عن الطريق المرسومة له ٠ كما كان

---

(٢٧) اليعقوبي ٢ ــ ٢٢٥ ٠

(٢٨) المصدر السابق ٢ ــ ٢١٥ ٠

(٢٩) المصدر السابق ٢ ــ ٢٢٣ ٠

عامل الحقد ـ من جهة أخرى ـ على الذين حاولوا ان يرسموا له صورة صادقة ويضعوه في مجال التطبيق الفعلي على طريق البشر ، ذا أثر فعال في تثبيت الرابطة الناشئة بين هؤلاء . وقد كانت هنالك عوامل ثانوية أخرى ، منها لمسهم للمنافع العاجلة التي يجنونها ـ حسب اعتقادهم ـ من جراء تصرفهم كحصولهم على المال ومراكز الثروات والجاه . وكانت العوامل السيكولوجية (النفسية) من جهة والعوامل البيئية من جهة أخرى تفرض عليهم انماطاً معينة من السلوك ، اعتادوا عليهم وبقيت جذورها قوية في نفوسهم ... كالانماط التي تجعل من العصبية القبلية او العنصرية أساساً لوجود الفرد او المجتمع ...

لقد كان كل عامل من تلك العوامل كفيلا بان يحرف أي شخص عن السلوك الامثل ؛ فكانت تلك العوامل كفيلة حينما تجتمع برجل واحد ان تجرده من كل صفة ونظرة انسانيتين ، وتحويله الى مسخ لا يدرك اي معنى لوجوده .

انا لو أردنا ان نأخذ بعضاً من أعمال اولئك الرجال ، لرأينا أنها كانت تشكل ظاهرة انحرافية خطيرة عن المثل الاسلامية والانسانية على السواء . فقد سار مسلم بن عقبة المري ـ وهو القائد الذي كان يزيد يثق به ثقة تامة ويستدعيه حتى خلال مرضه ليقوم بما يطلبه منه من أعمال ـ الى المدينة فاخافها وقتل أهلها ، حتى لقد بايعوه على انهم عبيد ليزيد ، وسماها نتينة وقد سماها رسول الله (ص) طيبة وقال « من أخاف المدينة اخافه الله » .[٣٠] وقد كان الحصين بن نمير ، خليفة مسلم ـ حينما مات هذا الاخير ـ قد (نصب فيمن معه من أهل الشام ، المجانيق والعرادات على البيت ، ورمى

(٣٠) المسعودي ٣ ـ ٧٨ ـ ٧٩ .

مع الاحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحروقات وانهدمت البنية ...) [٣١] .

لا شك ان مسلم والحصين ، قد نفذا ما طلب منهما تنفيذا دقيقا ، بل ربما كانا قد جاوزا ما طلب منهما . ولا شك ان ذلك يبرز لنا بوضوح جانباً اخلاقيا مهما من سلوكهما ، نستطيع ان نرى من خلاله افظع الغرائز الحيوانية وأقذرها على الاطلاق . ...

ان الحوادث التاريخية تخبرنا بأنه (قد ولدت الابكار لا يعرف من أولدهن ... و .. كان الرجل من قريش يؤتى به فيقال بايع آية أنك عبد قن ليزيد ، فيقول لا فيضرب عنقه ... » [٣٢] ، كان ذلك بالمدينة ، حينما سار اليها مسلم بأمر من يزيد ...

اترى اننا سنجد أي قانون اخلاقي او دافع انساني يبيح ذلك ؟ لاشك ان القوانين الاخلاقية والدوافع الانسانية قد انعدمت في نفس هذين القائدين البارزين من قواد يزيد ..

لقد (كان روح بن زنباع الجذامي على الف رجل من فلسطين شاركوا في استباحة المدينة) [٣٣] ، وكان الحصين بن نمير السكوني ، ضمن من استباح المدينة أيضا ...) [٣٤] .

ولقد كان ولاء النعمان بن بشير والضحاك بن قيس ليزيد — ومن قبله لابيه — معروفا وكان الاول منهما واليا على الكوفة من قبل يزيد [٣٥]،

---

(٣١) المسعودي ٣ — ٨١ .

(٣٢) اليعقوبي ٢ — ٢٢٣ .

(٣٣) (٣٤) اليعقوبي ٢ ٢٢٤ .

(٣٥) المسعودي ٣ — ٦٦ .

والثاني كان على شرطة معاوية ثم صار عاملا له على الكوفة بعد موت زياد . وبقي مع يزيد [٣٦] . وكانت العصبية ، التي تجعل من قرابة الدم عاملا من عوامل التفاعل الاجتماعي بجوانبه السلبية والايجابية — من جملة الدوافع التي جعلت يزيد يولي خاله حسان بن نجدل الكلبي أميرا على الاردن [٣٧] ويجعله من الناس الذين يغلبون عليه ، كما ذكر المسعودي .. كما كان نفس العامل ، مضافا اليه عامل الانطلاق البهيمي مع ادنى الغرائز التي يمكن أن توجد في نفوس البشر ، هو الذي قرب اليه عبيد الله بن زياد ليكون من الاصفياء الذين يجلسون مع يزيد على بساط الملاهي وينفذون له ما يريد تنفيذه ...

وحينما تتصور عقلية بني أمية التي كانت ترى الملك دون الخلافة وترى ان هناك تنافسا على هذا الملك بينها وبين آل هاشم ، والتي ترى كذلك ضرورة حيازتها — هي — على هذا الملك بكل وسيلة ممكنة ، نستطيع حينذاك ان تتبين العداء الشديد الذي يكنه ابناؤها لمحمد (ص) وللاسلام على السواء ، لا لشيء الا لأنهم رأوا الرسالة ملكا والاسلام عرشا ، وكان حريا وجديرا بهم — حسب اعتقادهم — ان يتربعوا على عرش ذلك الملك ... !!!

ان كل الدلائل تشير الى وجود تلك النزعة — التي حاربها الاسلام — في نفوس أولئك القوم . ولسنا نأتي بجديد حينما نقول ان تلك النزعة كانت بارزة كل البروز عند يزيد ، وقد حاول ان يستغل وجودها عند ذويه ليثبت عرشه ولو على انقاض (منافسيه) ... وهكذا رأينا تلك الاندفاعة اللا أخلاقية من قبل هؤلاء القادة والمستشارين الذين ساروا على الطريقة

---

(٣٦) الاستيعاب ١ / ٣٢٤ .

(٣٧) بروكلمان ١٣١ .

المنحرفة ، واتخذوها منهجاً وسبيلا ...

***

انا لا يمكن ان نلمح في صحف اعمال هؤلاء ، ما يجعلنا نعتقد انهم ساروا سيرة اسلامية صحيحة ، او انهم قد امتلكوا شبحا او أثرا لشخصية اسلامية ... بل اننا رأينا ان انحرافهم عن الاسلام وحقدهم عليه كان واضحا بصورة سافرة معلومة من قبل الجميع ، وكان وجودهم مع يزيد يوجهونه كما يريدون وينفذون ما يأمر به ، يجعل الخطر الذي كان محيقا بالاسـلام ، عظيما ... ولو اننا لاحظنا اعمالهم بدقة ، لبدا لنا أن مهمتهم الاساسية التي يبدو انهم ما وجدوا الا لاجلها كانت ـ بلا شك ـ هي القضاء على الاسلام ، وكأنه العدو الوحيد الذي كان عليهم ان ينازلوه ... وان العدد الكبير من هؤلاء الذين كانوا يساعدون يزيد لامساك الامور بأيد حديدية لم يكن يلوح في الافق اي امكان لاصلاحهم وارجاعهم الى حضيرة الاسلام.. ويبدو انهم ـ بدورهم ـ كانوا يعلمون ان رجوعهم الى الاسـلام ، كان سيفقدهم المراكز التي احتلوها والتي نالوا من ورائها كثيراً من الامتيازات التي اتاحت لهم ان يكونوا على رأس الطبقة الارستقراطية التي هيء لها ان تنشأ قبل ذلك العهد بمدة قصيرة جدا ...

ان اسوأ ما كان يمكن ان يواجهه الاسلام ، ان يكون مثل هؤلاء الناس ، على رأس الطبقة التي قدر لها ان تحكم باسمه وتظهر للناس انها القيمة عليـه والكفيلـة بتطبيق احـكامه وتشريعـاته على الشـكل (الصحيح) ... !!!!

وكان العمل لاجلاء هده الطبقة عن المراكز الحساسة التي احتلتها ، يعتبر في مقدمة الاعمال التي كان يجب ان يقوم بها الواعون من الامة ، المدركون

للمرحلة التاريخية الخطيرة التي كانت تمر بها ....

***

٣ — المجتمع الاسلامي وطبيعة العلاقات الاجتماعية .

لقد بينت في مكان سابق من هذا الفصل ، أن الالتحام بين شخصية الفرد وشخصية القبيلة — الذي كان اساس البناء الاجتماعي في الجاهلية — قد برز بعد وفاة الرسول (ص) بصورة شديدة ، بالرغم من انه (ص) أراد ان يقيم اسس وقواعد هذا الالتحام على اساس رابطة الفرد والمجتمع المباشرة مع الاسلام فقط ... وقد بينت كذلك ان هذه الناحية — ناحية العصبية القبلية — قد استغلت لاغراض معينة ، لجعل المجتمع يفكر بها ثانية ويعتمدها أساساً لعلاقاته الاجتماعية وتركيبه القائم ...

ان التصورات الجاهلية جميعها ، لم تستطع ان تثبت جدارة — ولو بسيطة — في اقامة مجتمع سليم ، بل برزت من خلالها جميع التناقضات التي كانت يمكن ان تبرز من خلال كيان مهتز . وكان التمسك بها — مع وجود الاسلام — يعني الانحدار التام نحو التخلف المطلق . ان المجتمع الاسلامي ، وقد لمس مدى الفائدة التي جناها من الاسلام ، ليجني على نفسه جناية كبرى، حينما ينحرف عنه وعن مبادئه . وحينما نقر بحقيقة انحراف هذا المجتمع في النهاية ، فاننا لابد سنعرف — وكما تؤكد لنا الادلة التاريخية — ان قوى قاهرة وقوية قد اجبرت هذا المجتمع على الانحراف .

لقد أراد الاسلام ان يقيم جميع التصورات الاعتقادية والعلاقات الاجتماعي بجميع ضروبها وانواعها على أساس الارتباط والتفاعل معه ، وكان نوع هذا الارتباط وهذا التفاعل ، هو الذي يحدد مدى سلامة المجتمع كمجتمع اسلامي ...

لقد كانت نظرة الاسلام لا تتيح لأي فرد ـ بشكل شعوري او غير شعوري ، ان يتمثل في جميع اعماله وتصوراته غير الله سبحانه ، فلا ينظر سواه او يخاف غيره ••• وان استسلام المجتمع الاسلامي باكمله ـ عدى فئة قليلة منه ـ للسلطة الحاكمة الفاسدة كان يعني ان تلك النظرة التي حاول الاسلام ايجادها ، قد انحسرت عن النفوس ، وحلت محلها نظرة ضعيفة مستسلمة ، تخاف من كل شيء وتؤثر الطاعة والسلامة ولو كانت مع الذل والعبودية ، وتترجى المنافع العاجلة البسيطة ، وربما قد ترى في منافع الاسلام، منافعاً غير عاجلة او غير صحيحة على الاطلاق ••

ان مثالا واحداً كان كافياً لكي يثبت لنا تلك الحقيقة ، حقيقة انحراف المجتمع عن كونه مجتمعاً سلامياً صحيحا ، وتقلبه بين مختلف الاتجاهات والتيارات الاسلامية وغير الاسلامية ••

ان ادراك أهل العراق فساد حكم يزيد والفئة التي تسند حكمه وتحيط به قد دفعهم الى ان يكتبوا الى الحسين (ع) ، فوجهوا اليه الرسل أثر الرسل [٣٨] حتى لقد بلغت الكتب التي ارسلوها اليه في بعض الروايات اثني عشر الف كتاب [٣٩] حتى ملئت هذه الكتب خرجين [٤٠] ، وحينما قدم مسلم بن عقيل الى الكوفة وذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر الف رجل وقيل ثمانية عشر الفاً [٤١] واجتمع اليه في وقت واحد ثمانية عشر الف

---

(٣٨) اليعقوبي ٢ ـ ٣١٥ وبروكلمان ١٢٨ •

(٣٩) الطبري ٤ / ٢٦٢ •

(٤٠) الطبري ٤ / ٣٠٣ والكامل في التاريخ ٣ / ٢٨٠ •

(٤١) المسعودي ٣ ـ ٦٤ •

رجل لقتال زياد [٤٢] .

لقد كانوا بعملهم هذا يدركون ضرورة قيام الحكم الاسلامي الصحيح المبني على النظرات الاعتقادية الاسلامية الخالصة والتشريعات السليمة ، غير انهم بموقفهم المعاكس ـ فيما بعد ـ قد دللوا بصورة اكيده ، ان عامل الايمان المطلق بالاسلام الى حد التضحية في سبيله ، لم يكن موجوداً لديهم على الاطلاق ، كما دللوا على وجود نظرة متذبذبة لديهم ، لم تكن تتيح لهم ان ينظروا نظرة صادقه وصحيحه الى الاسلام ومبادئه ...

ان مقتل مسلم تلك القتلة الشنيعة ، ومن بعده نصيره هاني بن عروة ، وعدم استجابة قبائله له وهو زعيم مراد وشيخها وحليف كندة وهم ثلاثون الف ذراع [٤٣] خوفا من ابن زياد ثم خذلان الحسين ومقتله [٤٤] ، وكان جميع من حضر قتله من العساكر وحاربه ، وتولى قتله من أهل الكوفةخاصة ، لم يحضرهم شامي [٤٥] تؤكد لنا تلك الحقائق التي ذكرتها قبل قليل ... كما تؤكد لنا في نفس الوقت على سطحية النظرة الاسلامية التي كانت موجودة في نفوس (اهل الكوفة) كجماعة يؤلفون واحدا منأبرز المجتمعات الاسلامية القائمة ...

ان المجتمع العراقي ، كان يعتبر ـ قياساً الى المجتمعات القائمة انذاك ـ من المجتمعات الواعية ، وكان يقف موقف المعارضة الواعية في بعض المواقف ويطلب بعض الاشياء التي يريدها من الخلفاء وغيرهم ... ومع ذلك فاننا

---

(٤٢) المصدر السابق ٣ ـ ٦٧ .

(٤٣) نفس المصدر ٣ ـ ٦٩ .

(٤٤) بروكلمان ١٢٨ .

(٤٥) المسعودي ٣ ـ ٧١ .

نرى منه تلك المواقف الانهزامية الذليلة التي تؤكد رفضة لكل نظرة اسلامية صحيحة ووقوفه ذليلا امام ابن زياد ، يؤكد قبوله لكل نظرة منحرفة ، واستعدادة لأن يقاتل في سبيل هذه النظرات المنحرفة ...

اننا حينما نريد ان نرى المجتمع السوري على حقيقته ، فان حقائق معينة تبرز امام اعيننا تدعونا الى الرثاء والسخرية على ذلك المجتمع في نفس الوقت . لان ذلك المجتمع الذي أعد لكي لا يستطيع ان يفرق بين الناقة والجمل ، والذي كان معاوية يفخر دائماً بأعداده على ذلك الشكل [٤٦] نراه اجهل بالاسلام من جهله بالناقة والجمل ، كما انه في نفس الوقت قد ربي تربية خاصة على مفاهيم مشوهة ، لا تمت الى الاسلام بصلة ، أريد له من خلالها ان يفهم نوعية علاقاته الاجتماعية ونظراته الخاصة ، حتى اصبح اعضاء ذلك المجتمع في النهاية كما قال فيهم صعصعة بن صوحان : « اطوع الناس لمخلوق واعصاهم للخالق ، عصاة الجبار وخلفة الاشرار » [٤٧] .

لا شك ان ذلك المجتمع ، عندما هيء ليكون على ذلك الشكل وبذلك الوضع ، كان يسير من سيء الى اسوأ ، باعتبار ان تلك العمليات (التربوية) التي كانت تجرى بانتظـام ، كانت ستبلغ به ـ حتماً ـ الى تلك النتيجة المزرية ... ان الشواهد التاريخية ، تثبت لنا بان المجتمع السوري كان بعيداً عن الاسلام ،وانه كان معداً اعداداً خاصاً لكي يكون مجتمعا لا اسلاميا، بل عدواً لدودا للاسلام ...

ان النتيجة التي كان سيصير اليها المجتمع ، وصفها عدي بن حاتم خير وصف حينما قال لمعاوية حينما سأله هذا : « كيف ترى زماننا هذا يا أبا

---

(٤٦) المصدر السابق ٣ ـ ٤١ .

(٤٧) نفس المصدر ٣ ـ ٥٢ .

طريف ؟ » فقال : « ان صدقناكم خفناكم وان كذبناكم خفنا الله » ، قال « اقسمت عليك » قال « عدل زمانكم هذا جور زمان قد مضى ، وجود زمانكم هذا عدل زمان سيأتي » (٤٨) .

ان عدي بن حاتم لم يكن مخطئاً ، حينما تنبأ بذلك ، فهو كان يدرك ان اساس التفاعل الاجتماعي كان هو الاسلام ، وكانت العمليات المنظمة لاضعاف قوته وحصره عن النفوس ، تعني ان المجتمع سيصير الى حالة من السوء بالغة ، وستستمر تلك الحالة بالسوء تدريجياً ما دامت تلك العمليات تجرى على ذلك النمط المنتظم ..

الا أن بعض حالات من يقظة الضمير والاحساس بالحالة المزرية التي كان يراد له ان يصل اليها ، قد كانت تنتاب ذهن ذلـك المجتمع في بعض الاحيان ، فكان يقوم برد فعل معاكس ، كما حدث في المدينة فانه (لما شمل الناس جور يزيد وعماله ، وعمهم ظلمه ، وما ظهر من فسقه .... أخرج أهل المدينة عامله عليهم ، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بني امية ... » (٤٩) ومثلما حدث في المدينة ، حدث في مكة كذلك .

ان الحركات المناوئة للحكم ـ والتي كانت تصدر من المجتمع الاسلامي من هنا وهناك ـ كانت حركات ضعيفة ، استطاع من تسنموا زمام الحكم ، ان يقضوا عليها بسهولة ويسر . لقد آل الامر في عهد يزيد والعهود التي اعقبت تلك الفترة ، الى ان تنحدر احوال ذلك المجتمع انحداراً خطيراً اصبح لا مجال معه لتسميته مجتمعاً أسلامياً ... واصبحت عوامل الضعف والانحلال

---

(٤٨) اليعقوبي ٢ ـ ٢٠٧ .

(٤٩) المسعودي ٣ ـ ٧٨ ـ ٧٩ الاغاني ١ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ اليعقوبي ٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

من الاسباب البارزة التي عملت على تشويهه وتشويه الكثير من احـكام الاسلام وتشريعاته والوقوف بوجه انتشاره وتحكمه على اساس سليم ...

ولعل الاشارات التي اشار اليها المسعودي (٥٠) والتي بين فيها ان الغناء قد ظهر في أيام يزيد بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، واظهر الناس شرب الشراب ، تدل دلالة اكيدة على ان المجتمع قد اصبح في ذلك العهد غير المجتمع الذي كان قائماً في عهد رسول الله (ص) مثلا ، واننا لا يمكن ان نجد فيه صفات المجتمع الاسلامي السليم . ويكفي القول بان قبول المجتمع بان يكون مثل يزيد على رأس القوة التي تدير أموره وتسير شؤونه ، كان يعني — بحد ذاته — على ان ذلك المجتمع قد فقد أسس تكوينه وعناصر وجوده .

***

٤ — الحكومة والشعب .

ان الشعب المسلم لم يكن كله يدرك أهمية المرحلة الخطيرة التي كان يمر بها ، ولم يكن يحس احساسا جاداً وواعياً بأهمية الدور الطليعي الذي كان عليه ان يقوم به .

وكان بوضعه ذاك ، يمثل حصيلة الجهود المتضافرة التي أريد له من خلالها ان يكون على ذلك الاحساس وذلك الوعي . ولعلنا ، حينما نروح نعدد المراحل والعمليات التي أريد له من خلالها ان يصل الى ما وصل اليه من أوضاع شاذة ، سيتعين علينا ان نقوم بدراسة موسعة لا أظن ان هنا البحث الموجز يستطيع ان يستوعبها كلها . ان العلاقة ، كانت من حيث طبيعتهـا ومحتواها ذات شكلين رئيسيين :

---

(٥٠) المسعودي ٣ — ٧٧ .

١ — شكل ايجابي .

٢ — شكل سلبي .

فالشكل الايجابي ، جاء نتيجة توافق بالسلوك والمعتقدات التي كان عليها كل من الحكومة والشعب ؛ فكان ان استتبع هذه النتيجة اتفاق قائم على اساس الموجود المتكامل والمصلحة المتبادلة بين هذين الطرفين . ويهمنا القول هنا ، ان تلك العلاقة الايجابية القائمة بين الشعب (المسلم) وحكومته (المسلمة) كذلك ، كانت بطرفيها تشكل علاقة سلبية مع الاسلام نفسه ؛ فقد كانت الحكومة منحرفة انحرافاً كاملاً عن الاسلام ، وكان الشعب ، بتراكم انقاض الجهل والعوامل الأخرى التي تعرض لها ، قد ابتعد كثيراً عن الاسلام كذلك ، فاصبحت تلك الرابطة — رابطة الابتعاد عن الاسلام — من قبل الشعب والحكومة ، ايجابية ، تربطهما سوية وتجعل الشعب يوافق على ما تعمله حكومته من اعمال شاذة ، كما ان الحكومة تقر الشعب — بدورها — على أي انحراف ، شريطة الايمس سلطتها او كيانها ؛ وكان ذلك الوضع المنحرف الذي كان عليه كل من الشعب والحكومة ، يشكل علاقة سلبية مع الاسلام ، الذي أراد ان تقوم جميع الفعاليات الفردية والاجتماعية على اساسه هو فقط .

اما الشكل السلبي ، الذي كان يحدد العلاقة القائمة بين الحكومة والشعب ، فقد كان سببه استيقاظ الشعب المسلم احيانا من السبات الذي أريد له أن يستمر فيه ؛ فكان عنصر توبيخ الضمير والاحساس بالذنب والانحراف عن الاسلام ، فجعل الشعب المسلم يفكر احيانا بواقعه الشاذ ، ويرى أن هنالك تنافراً تاماً بين هذا الواقع وواقع الاسلام . فكان يندفع ، تحت شعوره بقوة التأثيرات الاسلامية ، وبتأثير من احساسه بأهميتها ، الى

ان يرفض واقعه السيء • على انه كان في كل ذلك يقبل انصاف الحلول ليتخلص نتيجتها من شعوره بالذنب ، حتى اذا كانت تلك الحلول واهية لا تقوم على أساس مدعم متين •

وكان الشعب في حالتيه ، السلبية والايجابية ، لا يعدم اناساً يرشدونه الى ما كان عليه ان يقوم به ، فكانت الطبقة الواعية من الامة تعمل بدأب وانتظام ، مهما كانت الحالات النفسية والسلوكية التي كان يمر بها الشعب المسلم ، فكانت تنبهه الى ضرورة تبديل واقعه السيء بواقع الاسلام الغني بعطاءاته ، وكانت تعمل على الدوام لانارة الطريق امامه لكي يرى كل شيء امامه بوضوح •••

اننا نريد ان نقدم امثلة وشواهد تاريخية ، تؤكد وتدعم بها ما قلناه هنا ، بل نكتفي بتذكير القاريء بجوانب الانحراف التي وصل اليها كل من الحكومة والشعب في ذلك الوقت ، والتي بينا قسماً ضئيلا منها في هذا الفصل من الكتاب •

***

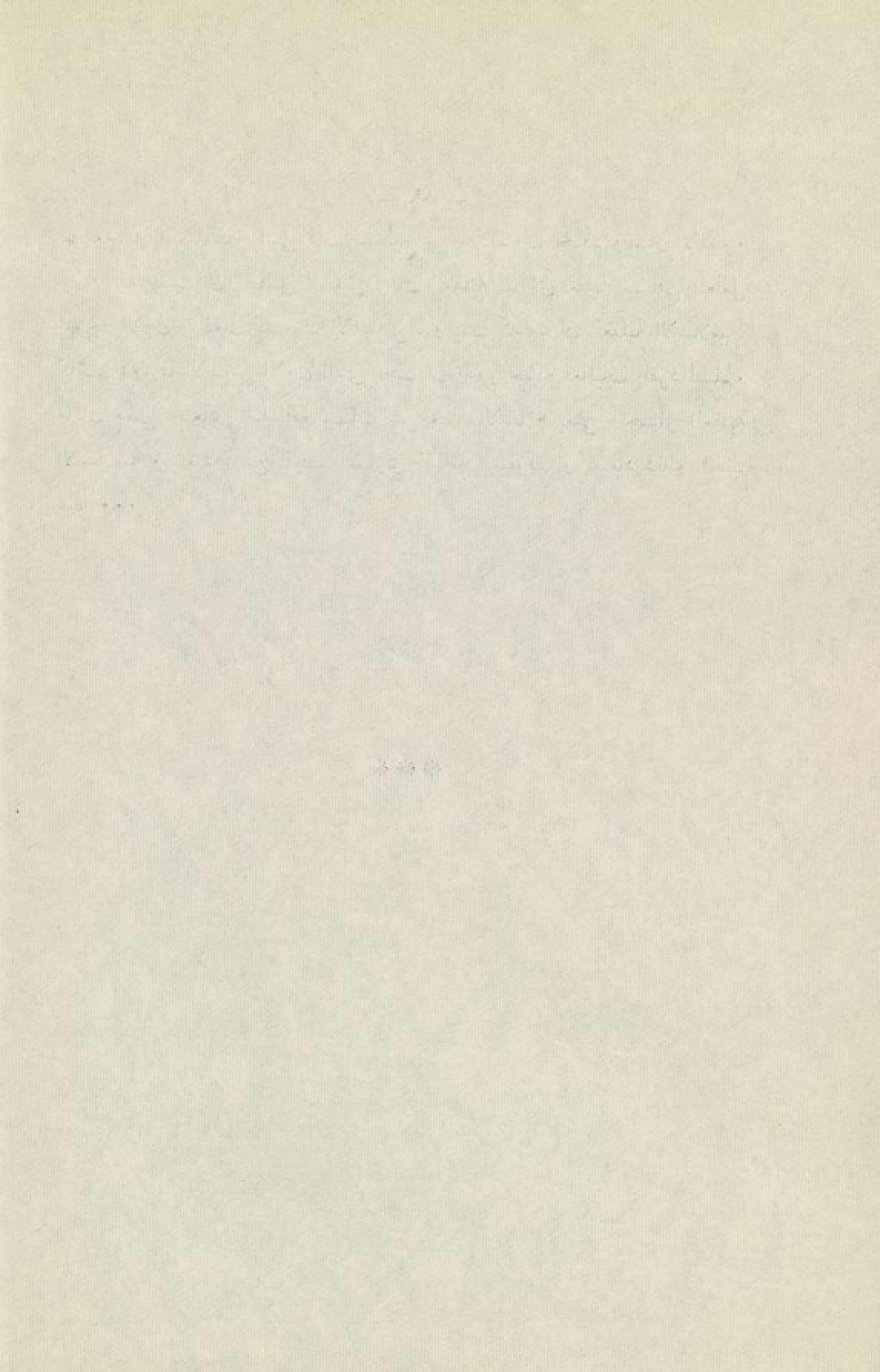
٥ ــ عقلية الحكومة وعقلية الشعب •

ان حصيلة هذا الفصل من الكتاب ، والتي يمكن ان نستخلصها ، نتيجة ما ورد فيه من بحوث ، تؤدي بنا الى حقيقة واضحة مهمة ، وهي : ان العقلية التي كانت السلطة الحاكمة تفكر بها ، وتتخذها أساساً لخطها السلوكي والانفعالي ، كانت عقلية بعيدة عن الاسلام ، لا تلتقي واياه على أي صعيد مشترك • وكان الامر بالنسبة للشعب لا يختلف عما كان عليه بالنسبة الى السلطة الحاكمة • وان ابتعاد الاسلام عن الحياة العامة وعدم استمرار تحكمه في ادارة شؤونها ، كان يدل دلالة أكيدة على ان الاسلام

لم تعد له تلك المكانة التي كان يستطيع من خلالها ان يحكم ويسير الامور.

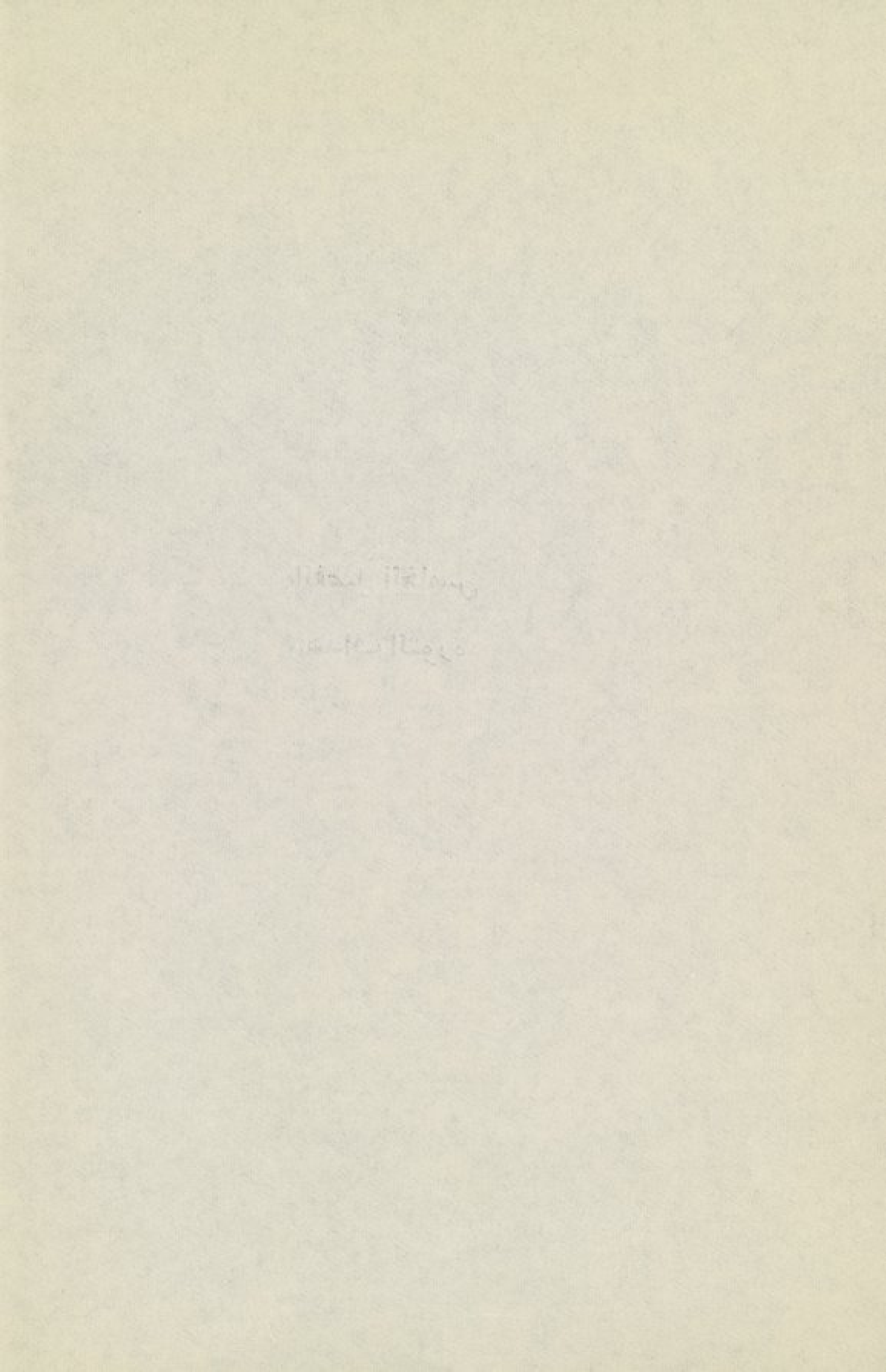
لقد بينت في الفصل السابق ، ان العقلية ـ اي عقلية ـ هي العامل الموجه الاول والفعال للسلوك الانساني ، وبينت كذلك ان العقلية الاسلامية، كانت بدورها الاساس الاول الذي يجب ان تدور حوله فعاليات الفردالمسلم. وكان معنى ابتعاد تلك الفعاليـات عن خط الاسلام يعني انحسار العقلية الاسلامية وابتعادها عن الخط الموازي لذلك السلوك او ابتعاد ذلك الخط عنها ...

***



الفصل الخامس

أهداف الثورة



لقد استهدف الامام الحسين (ع) ، من وراء ثورته ، هدفين ، على المديين القريب والبعيد . وكل من هذين الهدفين يمكن ان يتشعب بدوره الى أهداف متعددة ، قائمة بذاتها ...

فكان هدفه ــ على المدى القريب ــ تصحيح الاوضاع ، تصحيحا يمكن معه رؤية الاسلام مطبقا بصورة ملموسة وواقعية ...

وكان ، على المدى البعيد ، يهدف ان يجعل الاسلام مطبقا في كل وقت ومكان ...

ان السجلات التاريخية التي وصفت لنا حياة ذلك الرجل العظيم وسلوكه ، وتابعته خلال جميع ادوار حياته ، حتى استشهاده ، اعطتنا ادلة لا تقبل الشك او المراجعة . بانه كان في جميع اعماله وتصرفاته ، يستوحي الاسلام ، خطا فكريا وسلوكيا . كما تؤكد بنفس الوقت ، على اهتمامه الشديد ، لجعل ذلك الخط يتسع ، لكي يشمل فكر وسلوك جميع الناس على الاطلاق ، دونما تمايز ، وفي كل مكان ، وفي أي فترة زمنية مهما يكن امتدادها في مجاهل المستقبل ...

لقد صرح ، وفي مرات كثيرة ، بما كان يراه من فساد الاوضاع التي كان عليها الشعب المسلم بمحكوميه وحاكميه . وقد ادرك ــ ادراكا واعيا ــ ان تلك الاوضاع لا يمكن بأي حال من الاحوال ان تتبدل الى اوضاع اسلامية صرفة ، ما لم تكن هنالك هزة عظيمة تحدث في ضمير الامة فتقلبها من ذلك الشكل الى الشكل الآخر ؛ هزة تقضي على كل فكرة انهزامية متخاذلة ، وتخلق بدلها فكرة متنورة مدركة . ولم يكن أحد أعرف منه بكيفية احداث تلك الهزة في ضمير تلك الامة البائسة ...

ولا شك ، ان التضحية بالنفس ، والسير امام مجتمع مهزوز متخاذل

الى الموت بذلك الشكل ، كان يعتبر بحد ذاته ، مجازفة خطيرة ، بل انتحارا مؤكدا . وقد يكون كذلك فعلا لو كان الذي قام به غير الحسين (ع) ، وكانت الغاية ، غير الغاية التي توخاها واراد بلوغها ...

لقد اعتبر الحسين (ع) مسيره الى العراق ، لكي يستشهد هناك ، أمرا حتميا ، ليس له بديل ، لانقاذ الامة مما صارت اليه ، وارجاعها الى الخط الاسلامي الواسع ... ولا شك ان ارجاع الامة الى الاسلام يعتبر فتحا مبيناً ونصرا حاسما ، حتى وان كانت وراءه تضحيات جمة اقلهـــا الاستشهاد ، ولذلك نراه يقـول في رسالة بعثها لجماعة من بني هاشـم « ... من لحق بنا استشهد ، ومن تخلف لم يبلغ الفتح ... » [1] ، فهو بكلمته هذه ، قد أقر حقيقتين ثابتتين ..

الاولى : ان الذي يلحق به يستشهد ، وهذا مصير محتم يراه له ولكل من يلحق به .

والثانية : انه يعتبر ان هذا الاستشهاد فتحا بحد ذاته ما دام سيحقق الغاية المرجوة ...

ومن هنا ، من خلال هذه النظرة الواعية ، التي لم تكن وليدة ساعتها ، وانما كانت امتدادا لتطلعات سلوكية وفكرية استغرقت حياته كلها ، انطلق ليغير الواقع الفاسد الذي انغمرت امته في حمأته وعاشته ، وليبني على انقاضه واقعا شامخا ، يقف امام جميع الاحداث والتقلبات على مر العصور .....

ان المؤرخين ، لو أرادوا ان يقيسوا ثورة الامام الحسين عليه السلام بالمقاييس العادية المتوفرة لديهم ، لربما وصلوا ، أو وصل بعضهم ، الى ان تلك الثورة لم تكن ناجحة . فان تلك الثورة الدموية ، التي راح ضحيتها

---

(١) بصائر الدرجات ـــ الصفار ١٠ ـــ ١٤١ .

هو واصحابه ، لم تستطع ان تنل من جيش ابن سعد في حينها الا قليلا ، وكان من نتائجها العاجلة . ان أخذ ما تبقى من أهله وعياله سبياً ليعرضوا امام ابن زياد وأهل الكوفة ، ومن ثم امام يزيد وأهل الشام ... وقد استمر يزيد ومن تولى الحكم من بعده على سلوكهم الفاضح واعمالهم المنحرفة ...

ولكن المؤرخين ، لو أرادوا ان يقيسوا الامور بالمقياس الذي قاسها به الامام الحسين نفسه ، لتأكد لديهم بصورة راجحة ، لا تقبل شكا او اعتراضا ، ان تلك الاهداف التي توخاها ، قد تحققت فعلا ، وان كانت على مراحل وبصورة تدريجية ...

ان الحسين (ع) لم يكن يقصد — بأي حال من الاحوال — الاستيلاء المباشر على السلطة او مقعد الحكم . ولقد كان يجب ان يكون ذلك المقعد وتلك السلطة للاسلام نفسه ، فهو الحاكم الوحيد الذي لا اعتراض على حكمه ... وقد ضحى بالممثل الحقيقي للاسلام — والذي كان هو نفسه — من أجل الحاكم الحقيقي ، وهو الاسلام . وانه لو كان ينوي ان يستولي على جهاز الحكم ويحتله ، بأي طريقة كانت ، لرأيناه يأخذ برأي محمد بن الحنفية حينما « أشار عليه ابن الحنفية بالذهاب الى اليمن أو بعض نواحي البر ... » [٢] وكما أشار عليه كذلك ابن عباس ، حيث أخبره انه يجد هناك — أي في اليمن — الحصون والشعاب ، وحيث لابيه هناك شيعة ، وهو عن الناس في عزلة ، فيكتب الى الناس ويرسل ويبث دعاته [٣] ولما اعلم من سار معه بانه مخذول من قبل أهل العراق واذن لهم بان يتفرقوا

(٢) البحار ١٠ — ١٨٤ .

(٣) المسعودي ٣ — ٦٤ و الكامل ٤ — ١٦ .

عنه ان أرادوا [٤] .

لقد كان من مستلزمات الاستيلاء على السلطة ، تجميع وتجهيز القوات اللازمة بكل عناصر الهجوم ، لا أخذ النساء والاطفال لمقابلة القوة الكبيرة المقابلة ، كما فعل ...

ان الحسين (ع) ، قد أكد حقيقة استشهاده ، لانه كان يدرك اكثر من غيره ، ان حياة امته كانت رهينة باستشهاده ، فكان يرى الاستشهاد ، قدره الذي لا بد ان يناله . ولقد أخبر ابن عباس ، حينما نصحه عن الرجوع عن عزمه بالمسير الى العراق قائلا : « ... يا ابن العم ، اني والله لاعلم انك ناصح مشفق ، وقد ازمعت على المسير . فقال ابن عباس : ان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف ان تقتل وهم ينظرون اليك ، فقال الحسين : والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ... [٥] .

لقد رسم الحسين (ع) صورة واضحة لحالة مجتمعه ، وبين الفساد الذي بلغت اليه تلك الحالة . واعطى العلاج الوحيد الناجع الذي كان يمكن ان يقدم لتبديلها ، وهو العلاج نفسه الذي قدمه الاسلام ... كما بين النتائج التي يمكن ان تحدث اذا اخذ بغير ذلك العلاج ، وذلك في خطبته بأرض بني يربوع بن حنظلة حيث قال : « ... ايها الناس ، ان رسول الله (ص) قال : من رأى سلطانا جائرا ، مستحلا لحرام الله ، ناكثا عهده ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول ، كان حقا على الله ان يدخله مدخله . الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، واظهروا الفساد ، وعطلوا

---

(٤) الطبري ٦ — ٢٢٦ و اليعقوبي ٢ — ٢١٧ .

(٥) الكامل : ٤ — ١٦ .

الحدود واستأثروا بالفيء ، واحلوا حرام الله وحرموا حلاله . وانا احق من غير . وقد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم ، وانكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فان تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فانا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) ، نفسي مع انفسكم ، وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ اسوة ، وان لم تفعلوا ، ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر . لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم . فالمغرور من اغتر بكم ، فحظكم اخطأتم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم ... » [٦] .

ولم يكن بوصفه الناس الذين عاصروه مجانبا الواقع بأي حال ، وقد قال فيهم « .. الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على السنتهم ، يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون ... » [٧] .

وقد بين بان الاسلام لم تعدله تلك المكانة الاولى في النفوس ، وان الحق الذي جاء به لم يعدله ذلك الصدى العميق الذي ينقي الضمائر ويصفي النفوس فان « ... الدنيا قد تغيرت وتنكرت ، وادبر معروفها ، ولم يبق منها الاصبابة كصبابة الاناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل . الا ترون الى الحق لا يعمل به ، والى الباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء ربه، فاني لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما ... » [٨] .

لقد كان تبدل الاوضاع الى تلك الصورة ، تدعو المؤمن لطلب لقاء ربه،

---

(٦) الكامل ٣ — ٢٨٠ و الطبري ٤ — ٣٠٥ .

(٧) الخوارزمي ١ — ٢٣٧ والبحار ١٠ — ١٩٨ .

(٨) من خطبة له (ع) . الطبري ٤ — ٣٠٤ والعقد الفريد — ٢ — ٣١٢ وابن عساكر ٤ — ٣٣٣ .

وطبيعي ان ذلك لا يتم بطريقة الانتحار بالصورة المعهودة ، بل بمقارعة الظلم والظالمين ، وتلك المقارعة لن تجر وراءها الا الشهادة التي تذيق من ينالها السعادة وتخلصه من البرم والضيق اللذين يعاني منهما ....

اننا اذا أردنا ان نتأكد من ايمان المرء بالاسلام ، علينا ان نضعه امام محك فعلي مع خطر او شدة تحيق بهذا الدين ، ونرى مدى استجابته له .. فاذا كان لا يعتنق الاسلام الا من حيث يرى هناك أي خطر يتهدده ، ويتخلى عنه وقت الشدة والتضحية ، فمعنى ذلك انه غير مؤمن به ايمانا حقيقا . واذا كان مستعدا للتضحية في سبيله حتى بنفسه ، فان ذلك يدل على أنه مؤمن به ايمانا حقيقيا وتاما .

لقد أراد الامام الحسين (ع) ، المسلم ان يكون كذلك ، مضحيا بكل شيء من أجل الاسلام . ولم يكن هنالك بد من ان يضرب مثالا لذلك بنفسه فما أحراه وهو القائد الداعية ان يعمل ما يرجو ان يعمله كل مسلم سواه...

وكانت الاهداف التي توخاها اصحاب الامام الحسين (ع) لا تكاد تبتعد او تختلف عن تلك التي توخاها الامام نفسه . فانهم رغم علمهم بالمصير الذي سيصيرون اليه ، اذا ما ساروا معه ، وهو الموت المحقق ، ورغم الحاح الحسين (ع) عليهم مرارا بان يرجعوا عنه حفاظا على حياتهم ، فانهم ابو الا ان يسيروا معه ويلاقوا نفس المصير الذي يلاقيه ، لتحقيق الاهداف التي يسعى لتحقيقها ...

لقد قال لهم الحسين (ع) : « ... ان القوم ليسوا يقصدون غيري وقد قضيتم ما عليكم ، فانصرفوا ، فانتم في حل . فقالوا : لا والله يا ابن رسول الله ، حتى تكون انفسنا قبل نفسك ، فجزاهم الخير ... » [٩] .

---

(٩) اليعقوبي ٢ — ٢١٧ .

اننا لو تصورنا الموقف بدقة ، لعرفنا مدى ما وصل اليه أولئك الصحاب من ادراك واع وتفهم عميق ، لمباديء الدين الاسلامي • فبالرغم من ان الحسين (ع) قد أباح لهم ان يفارقوه وهو في موقفه ذاك امام الجيوش التي جاءت لقتله • وانهم يواجهون الموت في صبيحة اليوم التالي ، وان ذلك الموت لا مفر منه امام تلك الجيوش العرارة التي ستبيدهم حتما لو ظلوا معه ، لرأينا مدى النظرة الواعية التي كانت تدفعهم الى المـــوت في سبيل العقيدة، ومدى التزامهم بمحتوى الرسالة الاسلامية الرائدة، ومدى تصميمهم على ضرب المثل الاعلى في الجهاد والتضحية بالنفس ، وهي أغلى ما يملك الانسان •

انهم كانوا يواجهون الموت ، لا كالمحتضر المستسلم ، بل كانـــوا يواجهونه بشجاعة واصرار ••

لقد خرج ابن مظاهر يضحك ، فقال له يزيد بن الحصين : « ما هذه ساعة ضحك • فقال حبيب ، واي موضع أحق بالسرور من هذا ؟ ما هو الا أن يميل علينا هؤلاء باسيافهم فنعانق الحور ••• » (١٠) •

ولقد فعل برير مثله ، حينما هازل عبد الرحمن الانصاري ، فقال له عبد الرحمن : ما هذه ساعة باطل • فقال برير ، لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلا ولا شابا ، ولكني مستبشر بما نحن لاقون • والله ما بيننا وبين الحور العين ، الا ان يميل هؤلاء بأسيافهم ، ولوددت انهم مالوا علينـا الساعة ••• » (١١) •

ان تساؤلا بسيطا قد نستطيع ان نلمس من ورائه هدف الامام الحسين

---

(١٠) الطبري : ٦ ــ ٢٤٠ ط ١ •

(١١) المصدر السابق ٦ ــ ٢٤١ ط ١ •

عليه السلام البعيد من وراء ثورته وهو : هل ثار الحسين عليه السلام ليستشهد ومن معه ، من أجل ان يجرد الحكم القائم من برقع الزيف الذي كان يتستر وراءه ليكشف ذلك الزيف فقط ، أو أنه ثار ليحكم الاسلام مدة قد لا تتجاوز بضعة أعوام يعود بعدها لينحسر كما انحسر من قبل ؟ .

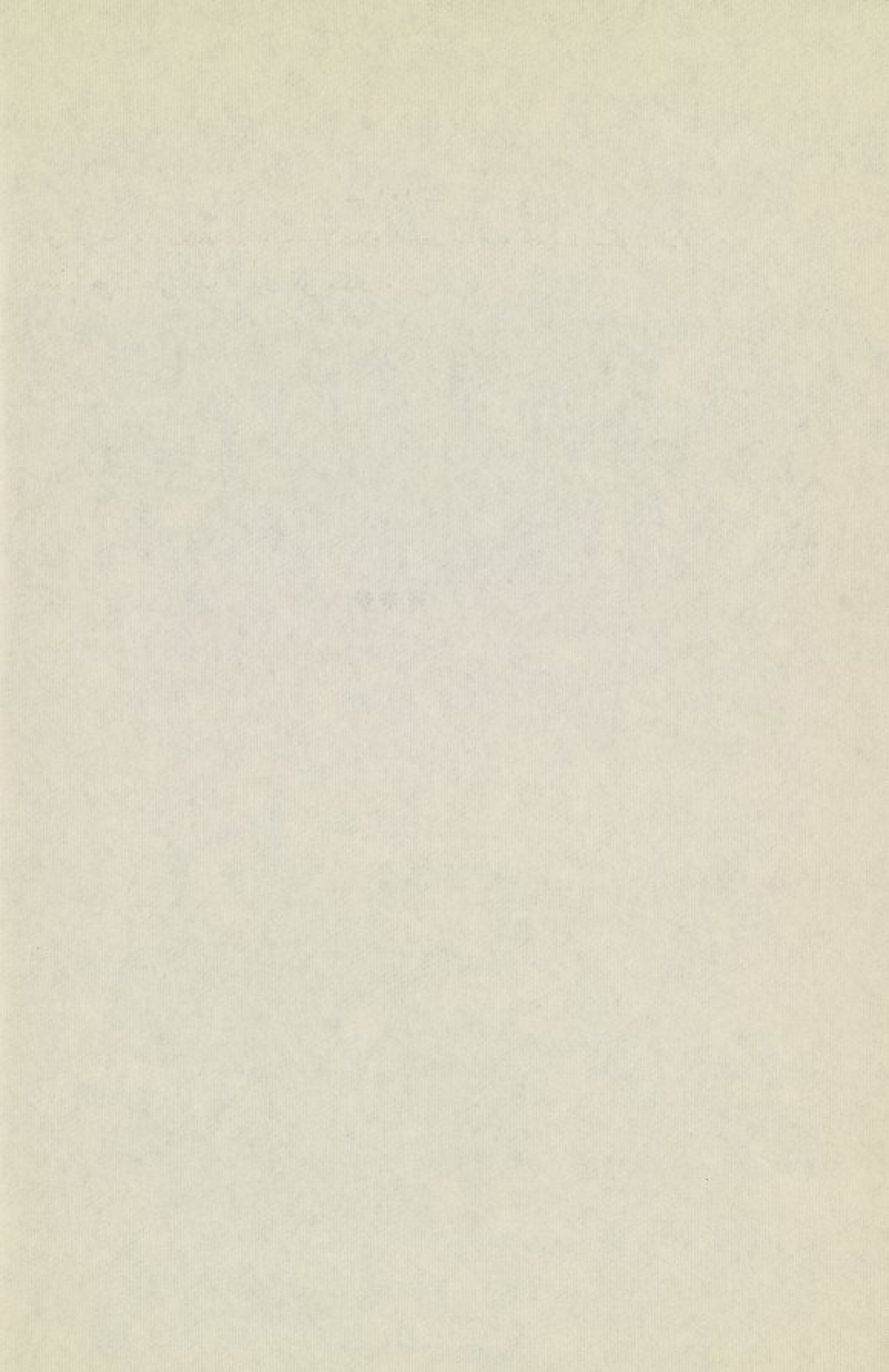
ان عملية كهذه ، ربما لا يحتاج معها الى الاستشهاد والتضحية بذلك الشكل . وقد يكون عنصر الزمن كفيلا بأن يمحو أثر ذلك الحكم ، ليأتي بعده من يمكن أن يسير الامور بصورة صحيحة عادلة ...

ولعلنا ندرك حينذاك ان السبب الرئيسي الذي توخاه الامام الحسين عليه السلام من وراء ثورته ، ليس فقط تعرية الحكم القائم من اقنعة الزيف التي تستر وراءها ، بل انه كان : لكي يبقى الاسلام تلك الشعلة الوضاءة التي اعتاد الناس ان يسيروا على هديها في جميع اعمالهم وتصرفاتهم . لقد كان الحسين (ع) في استشهاده ، يريد ان يرى الناس عظمة الاسلام الذي يدفع بعظمته رجلا مثله ليجود بكل شيء في سبيله ... انه لم يستشهد ليحكم الاسلام سنة او سنتين ، لتعود شعلته بعد ذلك منطفئة ، بل انه استشهد لتبقى تلك الشعلة مضيئة الى الابد ، تتخذها الاجيال نبراسا تهتدي به في كل تيه ، وتسترشد به عند كل حادث .

وقد نستطيع من خلال استنطاق الفصول السابقة ، التي كشفت لنا عن مدى الانحراف الذي وصل اليه الشعب المسلم وحكومته وانحسار العقلية الاسلامية وبعدها عن ذهنية الشعب ، ان ندرك السبب الرئيسي الذي توخاه الحسين من وراء ثورته الرائدة وهو : قلب الاوضاع الفاسدة قلبا جذريا وأحلال اوضاع صحيحة بدلها تتجدد على مر العصور ، وجعل الشعب المسلم يفكر دائما بعقليته الاسلامية ، ويفزع الى حكمها كلما رأى انحرافا يمكن

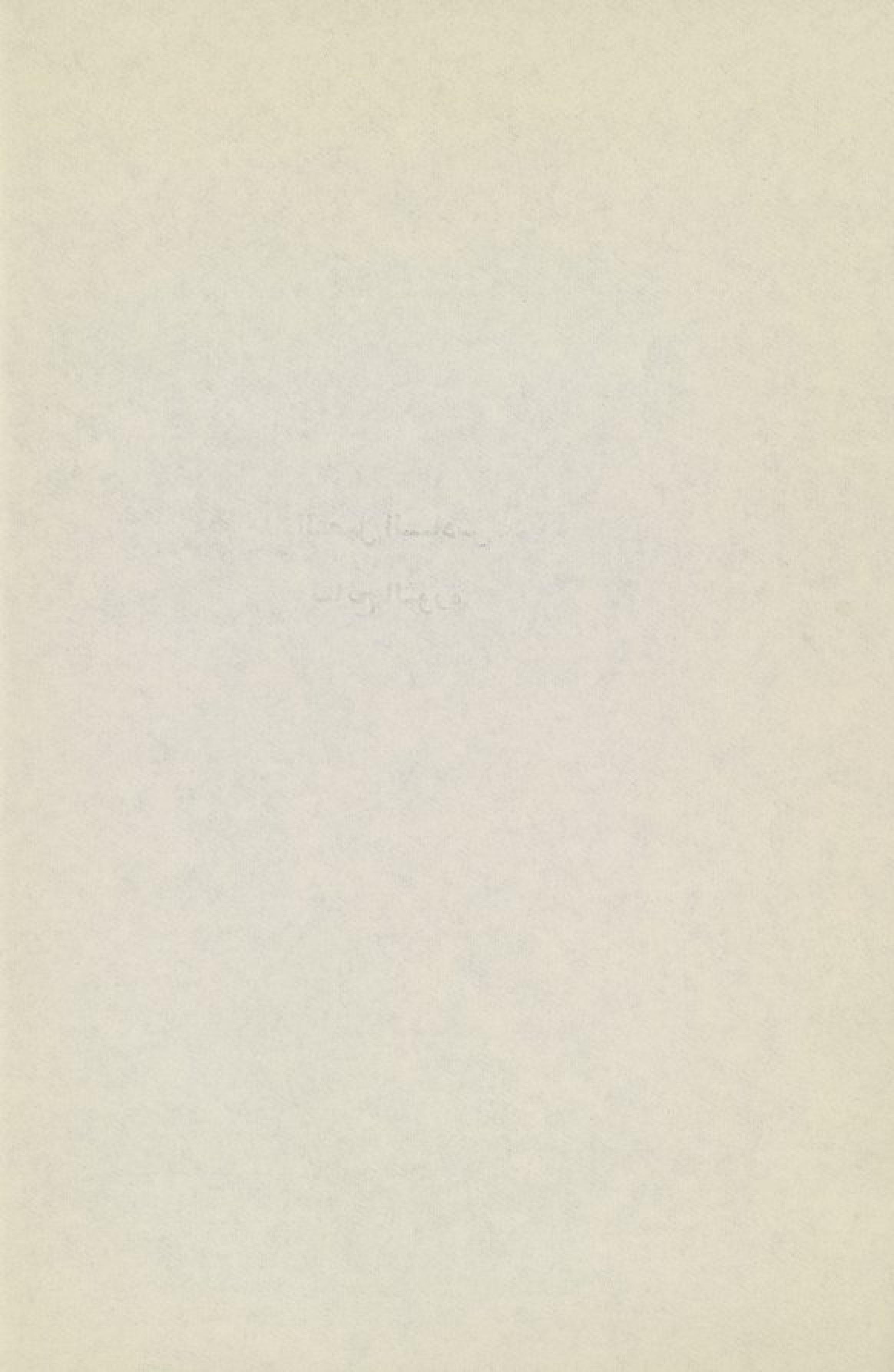
أن يطيح به ويبعده عن واحة الاسلام الخضراء • وأخيرا : ليكون الاسلام هو الحاكم على الدوام وفي كل مكان •





الفصل السادس

نتائج الثورة



لقد بينت في الفصل الاول ، ان كثيرا من المؤرخين والمفكرين ، ينظرون الى الثورة ، ويقيمونها على ضـوء النتائج العاجلة التي تأتي في اعقابهـا مباشرة ، فكلما كانت النتائج ذات نفع عاجل ، تتمخض عنـه الثورة ، ولمصلحتها مباشرة ، عدت هذه الثورة ناجحة ، وكلما كانت النتائج التي تعقبها تأتي بانتكاسة او ضرر للثورة ، عدت هذه الثورة فاشلة ...

وقد بينت ان الفشل والنجاح هنا ، قد يكونان امران نسبيان ؛ فالثورة التي قد تتمخض عن نجاح محقق ، ونتائج باهرة في اعقابها مباشرة ولمصلحتها قد تفشل آخر الامر في السير على الطريق الذي اختطته ، وقد يكون ذلك الخط الذي قاد الثورة الى طريق النجاح ، هو نفسه الذي سيجرها فيمـا بعد الى الفشل والاخفاق ، فتكون حينذاك من الثورات الفاشلة ، وان طالت المدة بين تحقيق النجاح ووقوع الفشل ...

والثورة التي لا تحقق اهدافها بعد وقوعها مباشرة ، قد تستطيع ذلك فيما بعد ، فتأتي بنجاح بعد فشلها المباشر ، وقد لا يكون ذلك الفشل فشلا اصلا في نظر اصحابها والقائمين بها ...

وكان من الطبيعي ان ينظر معظم هؤلاء الى ثورة الامام الحسين (ع) من خلال المنظار الذي ينظرون من خلاله الى أي ثورة أخرى ...

ولا شك ان تلك الثورة ـ كما هو معلوم لدينا ـ قد أتت بنتائج ذات نفع « لها » او بالاحرى للاسلام ، ولكن ذلك النفع لم يأت مباشرة وعلى الفـور ...

وهنا لا بد لنا من القول : أن الامور بعد الثورة سارت كما كانت عليها قبلها ؛ أي ان وضع الشعب المسلم بقي كما هو ، كما ان وضع الفئة الحاكمة قد بقي على حاله بدون تغيير كذلك ... بل ان بعض الحكام ، ربما كانوا

قد اكتشفوا طرقا جديدة للتعسف والتنكيل بالشعب المسلم وجره ليكـــون قطيعا من الحيوانات التي لا تتمتع بأي حاسة بشرية ...

وكان لا بد ان تكون نظرة بعض المؤرخين هنا : ان الثورة لم تحقق النجاح التام او انها بالاحرى كانت ثورة فاشـــلة ، ويستندون بذلك الى النتائج التي اعقبتها مباشرة ...

ولا شك ان نظرة كهذه ، ينظر بها الانسان الى الامور ـ وخاصة الدقيقة منها ـ قد تبعده عن أن يكون مؤرخا ذا حاسة مرهفة ، يسبر لها خـــور الاحداث ويعكسها على مخيلته بصورة واضحة . انها قد تبعده عن ان يكون حتى كمؤرخ بسيط أو مجرد مسجل لبعض الحوادث التاريخية ...

***

ان ثورة الامام الحسين (ع) ، رغم رد الفعل السلبي الذي حاول أن يجابه به بعض الحكام نتائجها وأثارها ، قد انعكست انعكاسا مباشرا على ضمير الانسانية ، وخصوصا الشعب المسلم ، فتأثرت بها ، كما لم تتأثر بأي حدث جابهته خلال سني حياتها الطويلة الحافلة بالاحداث .

واننا لو أردنا ان نسجل نتائج هذه الثورة الرائدة بصورة مفصلة ، لاحتجنا الى ان نخوض بحثا طويلا قد يستغرق فترة طويلة من العمر ... لان هذه النتائج لا يمكن ان تعد بتلك الصورة ، نظرا لتتابعها على المدى البعيد من الزمن ، حتى يومنا هذا ، ولترابطها وتشابكها حتى في الاماكن المختلفة من بقاع الارض ...

على اننا يمكن ان نشير الى أهمها ، اشارات عابرة ، لكـــي نستكمل جوانب هذا البحث الذي حاولت ان اجعله موجزا ليركز القاريء عليه ذهنه بصورة مباشرة وعميقة ، ولا يذهب في تشعبات أكثر من تلك التي ذكرتها ...

وله ان يتوسع فيه اذا ما رأى من وقته متسعا ، يرجع معه لاستنطاق الحوادث التاريخية من مصادرها واسانيدها ...

ان نتائج الثورة ، يمكن ان تقسم الى قسمين طبقا للتسلسل الزمني الذي حدثت فيه .

القسم الاول : النتائج التي حدثت في الفترات الزمنية التي أعقبت الثورة مباشرة ...

والقسم الثاني : النتائج التي ظلت متعاقبة على الامد البعيد بعد الثورة وحتى يومنا هذا ...

لقد كان من نتائج الثورة تحطيم ذلك السد الكبير من التمويهات والمفتريات المدسوسة على الاسلام ، والتي حاول الامويون ان يقيموها ليأمنوا بواسطتها اي خطر قد يحيق بهم من الشعب المسلم ... وقد رأينا — ونستطيع ان نرى بصورة اشد اذا نحن نظرنا نظرة دقيقة للاحداث التي حدثت في فترة حكم الامويين — الطرق المختلفة التي توصلوا بواسطتها الى احاطة انفسهم بهالة من التقديس ، أرادوا ان تصبح لهم من خلالها حصانة لا يستطيع ان ينفذ من خلالها أي سهم قد يتعرضون من ورائه للخطر ...

لقد اشتروا كثيرا من « الصحابة » ورواة الاخبار والقصاصين والمحدثين ، ودفعوهم لان يروا أحاديث وقصص عن النبي تثبت لآل امية حق البقاء على كرسي الحكم ..

وعملوا على أن تصدق الناس بتلك الاحاديث والقصص ، كما عملوا بمختلف وسائل البطش والارهاب والتفرقة ، على تثبيت سياساتهم ، وجر الشعب المسلم الى مزيد من متاهات الجهل والبؤس ...

ان المرء لو نظر الى تلك القوة الكبيرة التي سلح بها الامويون أنفسهم

ودعموا بها حكمهم ، لادرك ان تلك القوة لا يمكن تحطيمها الا بقوة خارقة قد تخرج بحدودها عن امكانات ذلك الشعب المسلم الضعيف ...

ولو اننا نظرنا - بعد ذلك - الى عوامل الضعف التي احاطت بجسم تلك الدولة ، لرأيناها قد تعددت بصورة ملفتة للنظر بعد ثورة الامام الحسين (ع) ؛ فان هذه الثورة قد كشفت للناس الصورة الحقيقية لطبيعه الوضع الذي كان يمر به المجتمع الاسلامي ، كما عملت على رفع البرقع الذي تستر وراءه الحكم القائم ، وحاول من خلاله ان يبدو للناس بصورة مقبولة مرضية ، بل بصورة لابد منها ... وكشف عن جوهر مخبوء للدين الاسلامي ، حاول اولئك الحكام ان يلمسوه من خلال ايحائهم للشعب المسلم بانهم - أي الحكام - قدر هذا الشعب الذي يجب عليه ان يرضى به شاء أم أبى ، لان تلك « مشيئة الله » والحاكم أو « ولي الامر » يجب قبوله والاخذ بحكمه سواء اكان عادلا أم ظالما ، وحشدوا امكانات هائلة لدعم فلسفة الحكم التي اوجدوها تلك والتي حاولوا ان يضفوا عليها صبغة اسلامية ...

لقد اثبت الحسين (ع) ان الحكم لله ، للاسلام لا لأحد ، وان الشعب يجب ان ينقاد لهذا الحكم ويرضى به ويجب على من يريد ان يقف بالقمة من قيادة هذه الامة المسلمة وتوجيهها ، ان ينقاد بدوره لحكم الاسلام ويقبل به ... سواء كان معاوية أو يزيد .. أو علي أو الحسين ..

ان أي انحراف عن حكم الاسلام ، معناه رفض هذا الدين رفضا باتا . ومن الطبيعي ان من يرفض هذا الدين ، لا يحق له ان يجلس على كرسي ليحكم باسمه ..

لقد كان انفعال الشعب المسلم قويا ، حينما أدرك مدى التضحية التي

اقدم عليها الحسين (ع) وصحبه ، لتصحيح الاوضاع والمفاهيم الاسلامية التي عمل أعداء الاسلام على تشويهها ...

ولقد أدرك الشعب المسلم طبيعة العلاقات الصحيحة التي يجب ان تربط بينه وبين دينه ، وحاول ان يبحث عن الواجبات المترتبة عليه أزاء كل مايحدث ويستجد امامه من احداث ...

وبكلمـــة ...

لقد أصبح الشعب المسلم مدركا مسؤولياته تمام الادراك عارفا أهمية الالتزام بها والتضحية من أجلها اذا تطلبت الامور ذلك ..

***

ولقد كان من نتائج هذا الوعي ، قيام بعض الثورات التي حاولت ان تطيح بالحكم القائم انذاك ، وهي ، وان لم تولد الاثر الذي ولدته ثورة الامام الحسين (ع) ، ولم تكن لها تلك الاصالة التي تميزت بها تلك الثورة الرائدة الا أنها كانت بداية جديدة لانبعاث طريق جديد من أجل التحرر من كل سطلة لا تمثل الاسلام تمثيلا حقيقا ، وقد كان ذلك ــ على الاقل ــ ما أرادت ان تثبته ...

فثورة التوابين ، والثورات التي اعقبتها ، كثورة أهل المدينة عــلى السلطة الاموية الفاسدة ، وثورة مطرف بن المغيرة والمختار الثقفي وغيرها، مما تعاقبت على المدى القصير من ذلك الزمن ، كانت تدل دلالـــة اكيدة ، ان الطليعة من الشعب المسلم بدأت تدرك دورها واهميته في المعركة مع أعداء الاسلام ... كما كانت تدل ، بنفس الوقت ــ على نوع الشعور الــذي تولد في نفوس الناس ، والذي كان يناقض الشعور الاول مناقضة تامة . فبينما كان الشعور الاول استسلاميا خانعا ، يدل على الجبن والخوف ويقبل

الذلة ، أصبح الشعور الجديد نضاليا ، يستهدف تقويض كل ما من شأنه ان يتنافي والمباديء الاسلامية ...

ولا شك ان لهذا الشعور عوامله التي كونته ، ومن جملة تلك العوامل الشعور بالاسى والندم ، الذي تولد في نفوس الناس بعد استشهاد الحسين عليه السلام ، حتى قال عثمان بن زياد وهو أخو عبيد الله ، أحد الرؤوس المدبرة لتلك الجريمة البشعة : « ... وددت ان في انف كل رجل من بني زياد خزامة الى يوم القيامة ، وان الحسين لم يقتل ... » [١] وقال رضى ابن منقذ العبدي — من أصحاب ابن سعد ومن الذين شاركوا بقتال الحسين عليه السلام :

لو شاء ربي ما شهدت قتالهم ولا جعل النعماء عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عارا وسبة تعيره الابناء بعد المعاشر
فياليت اني كنت من قبل قتله ويوم حسين كنت في رمس قابر

واذا كان ذلك القول الذي صدر عن هذين الشخصين قد عبر تعبيرا صادقا عما جاش في نفسيهما ، من تقريع للضمير واسف على ما فات من المواقف السابقة المخزية ، فانه في نفس الوقت يدل على انه كان نفس الشعور الذي راود جميع الشعب المسلم ، وخاصة ذلك الذي استدعى الحسين(ع) وضمن له النصرة والالتفاف حوله ثم خذله فيما بعد ... « ... لقد أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان ، والانصار وربيعة والنخع — حينما هموا بتأمير عمرو بن سعد — حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين (ع) ويقلن : اما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين

(١) الطبري ٦ — ٢٦٨ ط ١ .

(٢) المصدر السابق ٦ — ٢٨٤ .

حتى أراد ان يكون اميرا علينـــا على الكوفة ؟ فبكى الناس واعرضوا عن عمرو ... » [٣] .

ان ذلك البكاء ، وذلك الرفض لتأمير عمرو بن سعد ، وهو امـــير الجيوش التي قامت بتنفيذ تلك المجزرة الدموية في كربلاء ، يمكن ان تؤرخ منهما بداية تولد الشعور السلبي الذي تكون في نفس الشعب المسلم ، تجاه كل ما هو بعيد عن الاسلام وتعاليمه وتشريعاته ...

اننا يمكن ان نؤرخ من تلك الفترة ، النتائج التي ولدتها الثورة على المدى البعيد .

ولقد كانت تلك النتائج ذات جانبين :

الاول : ايجابي ، يدعو للتمسك بالاسلام تمسكا صحيحا لا شائبة فيه والاحتذاء حذ الرجال الذين عملوا طيلة حياتهم لنصرته ورفعة شأنه .

والثاني : سلبي ، يدعو للنفرة والابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون بعيدا عن روح الاسلام وطريقته في تنظيم الحياة الانسانية ...

ولقد كان من نتيجة هذه الجوانب ، ان أخذ الناس ، في كل زمـــان ومكان ، يفكرون تفكيرا جـــديا باهمية التعـــاليم والتشريعات الاسلامية وامكاناتها التي يمكن ان تنظم شؤون البشرية تنظيما دقيقا ، تسعد معه ، ولا تجد عند تطبيقه أي مشكلة او ازمة .. كما كان من نتيجتها ان أخذ الناس يتطلعون تطلعا واعيا مدركا الى الفترة الزمنية التي بدأت عند ولادة الاسلام ، حتى الفترة التي اريد عندها القضاء عليه قضاء تاما وعلنيا ، وذلك في عهد يزيد ومن جاء بعده من الحكام ... ولقد ولد ذلك التطلع، نظرة متفحصة خبيرة ، يمكن ان تزن الامور بميزان دقيق ، فتقيس الاخطـــاء

---

(٣) المسعودي ٣ ــ ٩٣ .

والانحرافات السابقة بمقياس عادل ، وتتطلع الى وضع لامكان فيه للاخطاء والانحرافات السابقة ...

اما النتائج السلبية ، فقد كان من آثارها ، ان أخذ الشعب المسلم ينظر نظرة كره للظلم والظالمين في كل مكان ، ويتطلع الى تلك الاثرة النبيلة التي صبغت جوانبها بالدم من أجل العقيدة بروح الاعجاب والفخر ... ويذرف الدموع على تلك المأساة الدموية البشعة ، لتولد عند ذلك في نفس كل واحد من ابنائه ، رغبة ملحة ، يتمنى عندها ، لو أنه كان في ذلك الموقف الذي وقفه الامام الحسين — وجيوش ابن سعد تحاصره — لكي يستشهد معه بعد ان يذيق الظالمين نكالا واي نكال ...

ورغم علمنا — بصورة اكيدة — ان مجرد ذرف الدموع والتباكي على ذلك الموقف ، لا يفيد بحد ذاته ، الا اننا يمكن ان نلمح ، ان ذلك الموقف له جوانب عاطفية قوية ، تجعلنا نرتبط مع اولئك الرجال الذين قدموا حياتهم رخية من أجل دينهم ، رباطا وثيقا ، فيدفعنا موقفهم ذاك — رغم ما يولده فينا من شعور بالاسى — الى ان تتمعن بالقوة الدافعة التي اجبرت اولئك الرجال لبذل حياتهم والتضحية بها على ذلك الشكل ، والتفكير بذلك الاسلام العظيم الذي رأى اولئك الرجال ان وجوده أهم من وجودهم فقدموا حياتهم رخيصة في سبيله ...

***

انني لو أردت ان ابين جميع النتائج والاثار ، التي تولدت نتيجة تلك الثورة الرائدة ، لاحتجت الي فترة زمنية طويلة قد تستغرق عمر انسان بكامله ، لان تلك النتائج قد تعاقبت على الامد البعيد وتلاحقت بصورة سريعة وكان لكل منها أثر في تسيير الحياة الوجهة التي كانت عليها ...

غير انني سأحاول ان ابين الفائدة التي يمكن ان نجنيها نحن ، ابناء هذا العصر ، من تلك الثورة ، والفائدة التي يمكن ان يجنيها من سيأتي بعدنا منها ...

ان السؤال الذي نقدمه هنا هو :

لماذا ثار الحسين (ع) ؟

والجواب تستطيع ان نستخلصه من الفصول السابقة التي مرت بنا والتي استطعنا ان نعرف منها : ان الحسين (ع) ثار لكي يبقى الاسلام يحكم البشرية على مر العصور .

وهنا نقول :

هل ان الاسلام الذي ضحى من أجله الامام الحسين عليه السلام ، هو غير الاسلام الذي يطالعنا اليوم ؟ وهل لا يجدر بنا ان يحكمنا ويسير حياتنا اليوم ، كما حكمنا بالامس وسير حياتنا ؟ .

واذا كان الاسلام صالحا قبل اربعة عشر قرنا — حيث كان مطبقا يتحكم بمجريات الحياة — فهل لا يزال صالحا حتى اليوم ؟ « وكرد على هذا السؤال تتساءل بدورنا :

هل ان الانسان الذي يعيش الآن ، هو غير الانسان الذي كان يعيش قبل الف وأربعمائة عام وهل تختلف الدوافع والميول والرغبات والغرائز والقابليات الجسمية والعقليه عند الانسان المعاصر عن تلك التي كانت عند انسان القرن الاول الهجري ؟ ام ان الانسان هو انسان في كل زمان ومكان؟ وهل يعني ان المنجزات الحضارية والعلمية ، وتلك التي تهتم بامور التكنولوجيا الآن ، تغير من النظرة القائمة عن الانسان ؟

وهل ان ما ينعم به انسان القرن العشرين ، بل وحتى الثلاثين ، يمكن

ان يخرجه عن حدود تلك الانسانية التي كان يتمتع بها قبلا ، فيخلق منه انسانا جديدا آخر ، له غرائزه وميوله ودوافعه التي تختلف عن تلك ؟

ومتى أجبنا على تلك الاسئلة بكل تجرد وموضوعية ، اصبحت مهمتنا بسيطة وواضحة ، في تقرير صلاحية النظريات والتشريعات الاسلامية ...

ولو اننا سايرنا — على سبيل المثال — بعض النظريات الموجـودة ، وقررنا ان ما يؤثر على الانسان عاملان هما : الوراثة والبيئة ، لادركنـا ان الصفات والعوامل الوراثية التي تنشأ عند الفرد — أثناء تكونه — لايمكن تغييرها بصورة ملموسة ، سواء أكان ذلك قبل الف واربعمائة عام او الآن. فهذه عوامل يتساوى بشأنها جميع الناس ، في جميع الازمان ...

اما مسألة البيئة ، رهذه تتكون من العوامل الخارجية ، كالعوامل المناخية والجغرافية ، ونوعية المجتمع القائم ، والنمط الذي يسير عليه في علاقاته وتفكيره ومعاملاته . فقد حاول كثيرون ان يتحكموا بها ويوجهوها توجيها (صحيحا) ...

وكما حاول ذلك فلاسفة ومفكرون قبل مئات ، بل الاف من السنين يحاول آخرون الآن — ان يقوموا بنفس الدور الذي قام به اسلافهم ، من التحكم بعناصر هذه البيئة وتوجيهها الوجهة المطلوبة ...

والخبرة البشرية ، تميل دائما لاختيار الاصلح ، لتطبيقه والاخذ به لكي توجه مظاهر البيئة ، التوجيه الذي تراه لائقا ...

وكانت تجربة الانسانيه مع الاسلام ، تجربة فذة رائدة ، اثبت فيها انه قادر على ان يكون اكبر عامل فعال في خلق بيئة تقوم على اساس من الفعاليات المتكاملة يتقدم بها نحو الاحسن في كل شيء ...

ان الشيء الذي يتفق عليه جميع العلماء البايلوجيين (علماء الاحياء)

والسايكولوجيين (علماء النفس) ، هو : انه من حيث التكوين الوظيفي والسيكولوجي (النفسي) للانسان ، فانه لا يوجد هناك فرق يذكر بين الانسان الذي عاش قبل الف واربعمائة عام وبين الانسان الذي يعيش في الازمنة الحاضرة ، وان جميع الفروق الموجودة ناتجة عن عوامل بيئية ، يستطيع الانسان ، ان يتحكم بها ويوجهها في معظم الاحيان ..

واذا درسنا نظرة الاسلام الخاصة ، ورأيه في هـــذا (التحكم) و (التوجيه) ، نرى انه يجيز لنا ، بل ويعطينا جميع الصلاحيات اللازمة ، لكي نؤدي هذا التغيير بأنفسنا ، ولا نقف وقفة جامـــدة امام تيار الحياة السريع ...

ان الاسلام يزودنا بجميع طاقاته الموجودة ، بقابلياته وتشريعاته ونظراته الخاصة ، التي نستطيع ان نواجه بها أي فترة زمنية ، ولا يجعل من أي تقدم حضاري او مكسب علمي ، عقبة في طريق هذه المواجهة ، بل انه هو نفسه يشجع على قيام التقدم الحضاري والمكاسب العلمية ، لكي تتلائم مع نظرة الانسان المتطورة في سيره الحثيث نحو تقدمه ورقيه .. » [٤]

***

ان الاسلام قد دفع بعظمته تلك وبعناصر النماء والقوة التي كمنت فيه — رجالاً عظماء للتضحية من أجله وفي سبيله قبل اكثر من الف وثلاثمائة عام . وتلك حقيقة نلمسها عند دراسة تاريخنا الاسلامي في أيامه الاولى وحتى انطلاق ثورة الحسين (ع) بصورة واضحة . ان تلك العناصر التي حفزت أولئك الرجال للقيام بما قاموا به من تضحيات ، يجب ان تكون دافعا

---

(٤) راجع منهاج الاسلام في التربية — كتاب لي تحت الطبع .

قوياً يلزمنا معه ان نسير على خط الاسلام المستقيم ، وتتشبع من عقليته الرائدة التي فتحت افاقاً واسعة للحياة السعيدة والمستقبل الباسم .

١٢ / ٨ / ١٩٧٠

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧



منشورات

مكتبة دار التربية ـ بغداد

الثمن ١٥٠ فلساً

